الذات والآخر
في
أدب عصر النبوة
التشكيل النفسي والصدى الإبداعي

دكتور
الشحات غمري أحمد
أستاذ مساعد الأدب العربي ونقده
كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالشرقية
جامعة الأزهر

الذات والآخر
في
أدب عصر النبوة
التشكيل النفسي والصدى الإبداعي

دكتور
الشحات غمري أحمد
أستاذ مساعد الأدب العربي ونقده
كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين
بالشرقية ــ جامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

فإن الواقع العالمي الذي نحياد الآن، وننخرط فيه وننجرف إليه بقوة العولمة والتفاعل الحضاري، على مستويي الحوار والصراع، والضغوط المفروضة على العالم الإسلامي من جهات عدة، وواقع المسلمين بما فيه من تخلف وضعف وتشتت ، والمعادين للتراث العربي فكرا وإبداعا، كلها أمور دافعة إلى إعادة تناول تراثنا الأدبي برؤى متجددة، مرتبطة بالعصر الذي نحياد، والروح العامة المسيطرة عليه، الداعمة لتوجهاته وتداعياته.

إذ نحن في أمس الحاجة الآن – أكثر من أي وقت مضى – إلى معرفة ذاتنا في مواجهة الآخر، نتوقف على مناطق القوة فيها لندعم

أساسها، ونقوي بنيانها، ونحاول التعرف على نقاط الضعف لتلاشى أسبابها.

وفي الوقت ذاته نتعرف على نظرة الآخر لنا، ومعرفة ما يمكن أن نتفق عليه، والأمور المختلف عليها، لفتح باب التحاور فيها وصولا إلى غاية مثلى نتوخاها جميعا، حتى يستطيع الجمع المعاصر . الحياة على هذا الكوكب، وبينهم قدر مشترك من التفاهم والتحابب والتحاور والسلام، لتكون هذه القيم بدائل عن التناحر والتباغض والصراع والدمار.

وقد كان اختياري للأعصر الأدبية الأولى (الجاهلي وصدر الإسلام) لأنها الأزمنة البكر، التي تعطينا نتائج صادقة ، عن حقيقة الصراع أو الحوار بين الذات والآخر، اتضحت في الأول منه معالم الذات العربية، وفي الثاني معالم الذات المسلمة.

لذلك خصصت للعصر الجاهلي كتاب (الذات العربية والآخر في الشعر الجاهلي) وفي كتابي (النثر الفني الجاهلي الرؤية والتعبير) خصصت الفصل الأول منه للخطابة السياسية والحوار الحضاري، الذي اتضح في تلك الخطب التي باشرها الوفد العربي بتحريض من (النعمان بن المنذر) يطون فيها – أمام كسرى ومن معه – شأن الذات العربية، مع الإصرار على إبراز المعالم الإيجابية في الذات العربية وتوضيحها، تلك المعالم التي حاول كسري أن يشوهها أمام ضيوفه ملوك الهند والصين والروم.

ومن الدراسات السابقة التي اتخذت هذا المنهج النفسي في دراسة الإبداع العربي المسلم حيث حوار الذات مع الذات، الدراسة القيمة للدكتور عبد المجيد الإسداوي التي عنوانها (الذات والآخر في خطب الأحزاب المعارضة لحكم الأمويين بالمشرق (دراسة نصية).

وقد هدفت الدراسة إلى استجلاء معالم الذات والآخر وتحولاتهما، والوقوف على معالم البناء التشكيلي والجمالي لدلالاتهما في خطب الأحزاب المعارضة للأمويين، وقد استهلها بتعريف كل من الذات والآخر في المعاجم العربية، وعند علماء النفس والاجتماع والفلسفة،ومنه إلى دراسة تجلياتهما ومعرفة دعائم بنائهما التشكيلي والجمالي، مما يتمثل في كل من اللغة وبناء الأسلوب والصور والأخيلة والإيقاع[1] ، وعنوان هذا البحث " الذات والآخر فى أدب عصر النبوة ،التشكيل النفسى والصدى الإبداعى".

وقد قسمت البحث أقساما كما يلي:

والقسم الأول منه سوف أخصصه لدراسة الذات وتشكيلها بين الجاهلية والإسلام، للوقوف على روافد بناء الذات وإعادة تشكيلها في ظلال عقائد وثقافات مختلفة قبل الإسلام، ثم دراسة الذات نفسها والتغيرات السلوكية والنفسية التي طرأت عليها بعد الإسلام، على أن النموذج الأدبي هو الصدى لهذا التشكيل في كل من الجاهلية والإسلام.

وفي القسم الثاني أدرس بعضا من روافد أدب النبوة في تشكيل الذات الرافد الأول خطبته – ﷺ– تلك التي ابتدأت بقوله: (إن الرائد لا يكذب أهله) هذه التي خاطبت القوم بتراثهم الذي يعتزون به، بوصفهم أمة عربية لها كينونتها وذاتها التي طالما ظهرت في مواطن مختلفة، بدأت بمثل عربي تعارف عليه الناس، وتوارثود جيلا بعد جيل.

(١) ينظر: الذات والآخر في خطب الأحزاب المعارضة لحكم الأمويين بالمشرق (دراسة نصية) دكتور/ عبد المجيد الإسداوي، كلية الآداب جامعة المنيا، (د.ت) .

ذلك أنه يبدو في الخطبة كيف أنها ألحت على قضية الموت والبعث والنشور، وهي قضية القضايا في المجتمع العربي الجاهلي، الذي أنكر جل أفراده البعث والنشور.

وقد سجل القرآن عليهم نكرانهم للبعث في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ (١) .

من هنا تأتي أهمية الخطبة التي يعلن فيها النبي للناس جميعا أنه رسول الله ، ويبدؤها بمحاورته المشركين في قضية تعد من أبرز الأمور الفاصلة بين الشرك والتوحيد.

وسوف أتوقف مليا في هذه الخطبة عند الشرح وملامح بناء الذات ، كما أدرس الوسائل التعبيرية التي أسهمت في تشكيل الخطبة، ومدى تناغمها مع وجدان المتلقين، واحترامها لعقولهم.

ثم أدرس الذات المسلمة المتعظة بالحياة والموت، من خلال خطاب نبوي موجه هذه المرة لجماعة المسلمين المؤمنين الموحدين، يشكل ذواتهم بالحياة التي ينبغي أن يسلكوها بمنظور الإسلام، ويعظهم بالموت نهاية كل حي، إذ الحياة ممر وجسر للآخرة، وليتزود كل مسلم حي من دنياه لآخرته قدر استطاعته.

الرافد الثالث دور الأمر والنهي في بناء الذات المسلمة، أحلل فيه الحديث النبوي الذي يحث المسلمين – كل المسلمين – على ممارسة دورهم الريادي في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي يبدأ بقوله: (مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها).

حيث أوضح في شرحي له (البعد الفكري وتشكيل الذات الجمعية المسلمة) وكيف أن هذا الحديث يعد من أهم الروافد التي شكلت الذات المسلمة في بعدها الجمعي، وحدد المسؤولية الإسلامية

(١) الإسراء ٤٩ .

على كل فرد من خلال الجماعة، مناهضة لدعاوى الحرية الشخصية المنفلتة، التي لا تراعي حدود الحياء وحدود الإسلام.

وفي القسم الثالث أدرس نموذجين شعريين من شعر صدر الإسلام بغية التوصل إلى أصداء التشكيل في الذات المسلمة، من خلال الشعر العربي نموذجا.

أتناول في النموذج المختار أولا قصيدة للشاعر حسان بن ثابت الأنصاري، في صراعه الشعري مع الآخر عقديا،أتوقف فيه عند التعريف بالشاعر ودعائم التشكيل، ثم أتناول قصيدته التي مطلعها:

عرفت ديار زينب بالكثيب ∴ كخط الوحى في الرق القشيب

بالدرس والتحليل حيث تناول معالم الذات المسلمة، ثم الذات المسلمة والآخر فكرا وفنا.

أما النموذج الشعري الثاني فسأخصصه للشاعر (عباس بن مرداس) ، للوقوف على (التحول من الذات القبلية إلى الأممية) وسأختار قصيدته التي مطلعها:

تقطع باقي وصل أم مؤمل ∴ بعاقبة واستبدلت نية خلفا

لتكون نموذجا للتحول من الذات القبلية إلى الذات الأممية[1] المسلمة، ثم دراسة البعد الفكري للوقوف على ملامح التحول في الذات القبلية على النحو التالي:

أ – بنو سليم والذات القبيلية المسلمة .

ب – الذات الجمعية الموحدة في تصادمها مع الذات المشركة.

---

(١) الأممية: مصطلح سيكثر دورانه فى هذا البحث وأعنى به تحول الذات من التعصب القبلى إلى الانتماء الجمعى ، حيث بات المسلم ينتمى إلى أمة لها كيان جديد وهوية جديدة، انطلاقا من قول الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (آل عمران: ١١٠).

وفي كل الأمور لن أهمل – بمشيئة الله وعونه – الجانب الجمالي الإبداعي في النصوص التي أخضعها للدرس والتحليل، لأن المنهج الفني في تناول النص ينبغي – من وجهة نظري – التركيز عليه واعتماده ركنا أساسا في المناهج النقدية ، المطبقة في الدراسات الأدبية والنقدية.

وبالله التوفيق

دكتور/ الشحات غمري أحمد

القسم الأول
الذات وتشكيلها بين الجاهلية والإسلام

الإنسان كائن حي يتأثر بما حوله من مؤثرات تترك آثارها في بنائه وتشكيله، وتبدو عليه واضحة أصداؤها وانعكاساتها، وهي تتعدد فيه بتعدد انتماءاته الثقافية وميولا ته الغريزية مثل : التدين والبيئة والحرفة والعقيدة وغير ذلك من العوامل التي تسهم في تشكيل الذات . فماذا نعني بالذات ؟

دلت الكتابات العلمية وبالذات النفسية منها حول مفهوم الذات على أنه يمثل عنصرا أساسيا في تكوين الشخصية[١].

وهو ما يتعلق عادة بتصور الفرد عن نفسه الناتج عن خبراته في التفاعل مع الأفراد الآخرين.

كما يمكن تعريف مفهوم الذات نفسيا بأنها (تكوين معرفي منظم وموحد ومتعلم للمدركات الشعورية والتصورات والتعميمات الخاصة بالذات، يبلوره الفرد ويعتبره تعريفا نفسيا لذاته)[٢].

أو " هي منظم وفاعل وممثل في الوقت نفسه، فهي ذات نشاط، ولكنها قبل ذلك كيان خاص،كما أنها جهاز، ولكنها ليست كأي جهاز.

والأساس أنها كيان يقوم بأنشطة جوهرية ليست لسواه، وهي للإنسان كالدماغ للجسم "[٣].

وعلى العموم فان مفهوم الذات واسع ويختلف علماء النفس في تفاصيله كما يختلف علماء الاجتماع، وحتى لا نتوغل في تعريفات لا طائل منها .فإننا سنستخدم مفهوم الذات على أنه الذات الفاعلة أو

---

(١) علم النفس الاجتماعي، حامد زهران ، عالم الكتب، ط٥، مصر (د-ت)ص ٢٩١ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٩١.

(٣) الذات ونظرية الفعل، للدكتور عزت قرني، ص ٢٧، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة، القاهرة، ٢٠٠١ م

الفاعل الاجتماعي (social actor)لأنه الأقدر على استيعاب ما كتبه العلماء حول مفهوم الذات .

فالذات الفاعلة عندهم اقرب إلى مفهوم النفس البشرية التي هي حصيلة تفاعل عوامل داخلية وراثية وخارجية مجتمعية.

أما الآخر : فهو انقسام على الذات أحيانا، والآخر كذلك مفارقة ذاتية، بمعنى أن ثمة (أنا) أخرى يفترض وجودها في مقابل (الأنا) .

إن (الأنا) الأخرى هي القطب الذي يقدح شرارة الجدل مع نظيره، ويقيم حوارا عنيفا وشائكا [١] .

هذا عن مفهوم الذات من المنظور النفسي والاجتماعي جئنا به على عجالة ، لنتوقف مليا عند تشكيل الذات وعوامل بنائها بين الجاهلية والإسلام.

ذلك أن الناظر في تاريخنا القديم يدرك الفروق شتى ومتناقضة – في معظم الأمور – بين سلوك الذات الإنسانية وصفاتها قبل الإسلام وبعده.

والمدلول الاصطلاحي لفترة ما قبل الإسلام يطلق عليها القرآن مصطلح (الجاهلية) في قول الله تعالى: ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ [٢] وقوله سبحانه:﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ [٣].

ذلك أن الجاهلية مشتقة من الجهل، وهي طبقا لمدلولاتها اللغوية تدور حول النزق والإسراع إلى الشر والطيش والغضب والهمجية، مناقضة في ذلك مدلول (الحلم).

---

(١) راجع دور الآخر في الإبداع الجمالي، وليد منير ، مجلة فصول، المجلد العاشر ، العددان (١ ،٢) ص ١٠٩ – ١١٠ .

(٢) الفتح /٢٦

(٣) آل عمران / ١٥٤.

وشعرنا العربي تناول هذه الكلمة بمدلولاتها السابقة، فيقرنها الشعراء أحيانا بنقيضها الحلم، إذ يقول الشنفرى من لاميته المشهورة[1]:

ولا تزدهي الأجهالُ حِلمي،ولا أرى .·. سؤولاً بأعقاب الأقاويل أنْمِلُ[2]

وقول عمرو بن كلثوم من معلقته[3] :

ألا لا يجهلن أحد علينا .·. فنجهل فوق جهل الجاهلينا

ويقول حسان بن ثابت مبينا ملامح المسلمين[4]:-

لا يجهلون وإن حاولت جهلهم .·. في فضل أحلامهم في ذاك متسع

والجاهلية يقابلها الإسلام، فإذا كانت الجاهلية تضمنت المدلولات السابقة فإن الإسلام يعنى الطاعة والخضوع والانقياد لله تعالى ، والامتثال لأوامره ونواهيه .

فالجاهلية والإسلام بذلك عنوانان على ما يندرج تحتهما من حيث المكان والزمان والإنسان، ومعلوم أن الذات العربية في العصر الجاهلي لم يهذبها دين يكون ملامحها ، ويطهر بواطنها من نوازع الشر والرذيلة ، ويروض أنفسها على الخير والحب والفضيلة ، اللهم إلا ما ندر عن بعض الشخصيات من الأحناف كورقة بن نوفل وغيره.

ومن الحقائق التاريخية أن المجتمع الجاهلي قد وزعت أفراده وقبائله بين ديانات متنوعة ، بعضها سماوي (كاليهود والمسيحية

---

(١) ديوان الشنفري ،ص ١١ جمع وتحقيق د/اميل بديع يعقوب ، دار الكتاب العربى ، بيروت ، لبنان ، ط أولى ١٤١٢ هـ -١٩٩٠ م

(٢) تزدهى :-تستخف ، الأجهال جمع جهل ، وهذا الجمع لا يستعمل، الأعقاب جمع عقب ، المؤخر .

(٣) ديوان عمرو بن كلثوم والمعلقة ص ٦٤ -ص٩٠ تحقيق وجمع د/إميل بديع يعقوب ، دار الكتاب ،لبنان ١٩٩١ م

(٤) ديوان حسان بن ثابت ، ص ٢٣٨ تحقيق د/سيد حنفي حسنين ، دار المعارف ١٩٨٣ م ،وسوف نتوقف مع حسان ونترجم له في سياقه حين الوقوف على عوامل تشكيل الذات المسلمة عنده.

والحنفية) وأغلبها بشرى ، فكانت معبودا تهم موزعة بين الأوثان والكواكب والنجوم والملائكة والشياطين

فأما اليهودية والنصرانية فإن التحريف قد دخلهما على أيدي الأحبار والرهبان ، فقد أدخلوا على(التوراة) و(الإنجيل) ما يخرجهما عن دائرة الهدى الإلهى الحكيم ، فهما بما آلا إليه لا يكونان أمة لها خصائصها وسماتها ، ولا يكونان شخصية لها ملامحها تسير في أرض الله على هديه وتعاليمه للبشرية ، قال تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾[1].

ذلك أن " نظرية العالم لم تكن بشكل عام (أنثربولوجية) بل إن فردية علاقات الإنسان بالإله مثلها مثل التعاليم المسيحية (الشخصية) المجسدة في مبدإ الاستقلالية الفردية لكل من الثالوث المقدس، وفي فكرة (أنسنة الآلهة) (المسيح كاتحاد للطبعتين الإلهية والإنسانية) أن هذه الفردية كانت نتاجا للمنظور التاريخي الطويل.ومن هنا فإن النظريات اللاهوتية حول طبيعة الثالوث (الرب الابن، الرب الأب، الرب الروح القدس) والنصوص الكهنوتية كانت أكثر تجريدا وغير واضحة "[2] .

و أما (الأحناف) فهم قليلون يمكن إحصاؤهم بيسر وسهولة، وما بقى من العرب – وهم الأعم الأغلب – توزعوا بين معبودات باطلة زائفة لا تسمع ولا تبصر، ولا تعقل ولا تنطق ، ويكفيني الإشارات القرآنية تهكما وسخرية من عقول أولئك المشركين عباد

(١) البقرة / ١٧٩.
(٢) انظر: البحث عن الذات (دراسة في الشخصية ووعي الذات) إيغور كون، ص ١٠٩ ، ترجمة الدكتور غسان نصر، دار معد للنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، ١٩٩٣ م .

الأصنام، في قول الحق سبحانه وتعالى﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴾[1].

فماذا ننتظر إذاً من أبناء مجتمع كهذا ..؟ وكيف تكون أصداء تلك الحياة العقدية في سلوك أفراده واتجاهاتهم ..؟ وهل عقائد كهذه يمكنها أن تهذب معتقديها وتوجههم في حياتهم الوجهة الرشيدة..؟ "إن الإنسان منذ أن وجد على هذه الأرض وهو في حاجة ماسة وملحة أيضا إلى قوانين ضابطة، تعدل من غرائزه، وتنظم سلوكه ، وتحدد اتجاهاته ، وتهيئه للكمال الذى خلق مستمدا له في كلتا حياتيه الأولى هذه التي يقضيها قصيرة على هذه الأرض ، والثانية ،التي تتم له في عالم غير هذا العالم الأرضي الهابط ،وإنما في عالم الطهر والصفاء ، في الملكوت الأعلى كما أخبر بذلك ربه ، بواسطة كتبه التي أنزلها وأنبيائه الذين أرسلهم ، غير أن تلك القوانين المطلوبة لتعديل غرائزه ، وتنظيم سلوكه ، وتحديد اتجاهاته في الحياة لا توجد في تشريع غير إلهي "[2] .

أما الديانات السماوية في الجزيرة العربية وما حولها ، فلم يبد لها أثر فعال ، نظراً لما أصاب بعضها من تحريف ومسخ من جهة، ولقلة المعتنقين لبعضها من جهة أخرى، إنه اضطراب عقدي نجد انعكاساته في قصيدة (أبى قيس بن الأسلت) [3] حيث

---

(١) النجم / ١٩-٢٢.

(٢) عقيدة المؤمن، أبو بكر الجزائري ص٢٣، مكتبة الدعوة الإسلامية، شباب الأزهر ١٩٨١م

(٣) صيفي بن الأسلت (? - ١ هـ / ? - ٦٢٢ م) هو صيفي بن عامر الأسلت بن جشم بن وائل الأوسي، أبو قيس. : (مختلف في اسمه، قيل: صيفي، وقيل: الحارث، وقيل: عبد الله). شاعر جاهلي من حكمائهم، كان رأس الأوس، وشاعرها وخطيبها، وقائدها في حروبها. وكان يكره الأوثان، ويبحث عن دين يطمئن إليه، فلقي

يقول[1] :- (وافـر)

أرب النـــاس أشـــياء ألمـــت ∴ يلـــف الصـــعب منهـــا بالـــذلول
أرب النـــاس أمـــا إذ ضـــللنا ∴ فيســـــرنا لمعـــــروف الســـــبيل
فلـــولا ربنـــا كنـــا يهـــوداً ∴ ومـــا ديـــن اليهـــود بـــذي شـــكول
ولـــولا ربنـــا كنـــا نصـــارى ∴ مـــع الرهبـــان في جبـــل الجليـــل
ولكنـــا خلقنـــا إذ خلقنـــا ∴ حنيفـــا ديننـــا عـــن كـــل جيـــل
نسـوق الهـدي ترسـف مـذعنات ∴ مكشـــفة المناكـــب في الجلـــول

ففي الأبيات إشارة إلى ما كان عليه بعض ذوى التدبر والتأمـل نحو الديانات السماوية . " فالشاعر يرفض ديـن اليهوديـة لأنـه مختلف لا يشبه بعضه بعضا ، ويرفض ديـن النصـارى ، ويمتثـل للحنيفية، ويؤثره على سائر الأديان) [2] كما أن الكفر والإشراك فـي المعبودات الخرافية الأخرى لا تمكن عقيدة التوحيد الحقة من إحداث أثرها في شخصية الفرد ، وفي جموع البشر على مستوى القبيلة أو الأمة ، فإنه " إذا فهم التوحيد على حقيقته ، اتخذه الإنسان شعاراً له وطابعاً للتحرر من رق العبودية لغير الله في مختلف ألوانه وأشكاله، والإنسانية في مختلف أزمنتها وأمكنتها تخاف الموت وتخشاد ، وهذا يقودها إلى الاستعباد للأقوياء ، والذلة أمام الطغاة، ولكن هذا الوضع لا يتمشى قط مع عقيدة التوحيد"[3].

علماء من اليهود ورهبانا وأحبارا.ووصف له دين إبراهيم فقـال: أنا على هذا.ولما ظهر الإسلام، اجتمع برسول الله ﷺ، وتريث في قبول الدعوة، فمات بالمدينة قبل أن يسلم / ينظر: معجم الشـعراء الجاهليين والمخضرمين ص٥٠٥، د/ عفيفى عبد الـرحمن، دار العلوم للطباعة والنشر،الرياض – السعودية ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

(١) سيرة ابن هشام جـ٢ /ص٤٣٨.

(٢) انظر: الشعر فى رحاب الدعوة الإسلامية د/محمد أحمد سـلامه، ص ٢٣بتصرف مطبعة حسان القاهرة ١٩٨٣.

(٣) انظر : منهج الإصلاح الإسلامى فى المجتمـع د/ عبـد الحلـيم محمود، ص١٠٧ دار الشعب – القاهرة .

" ومن هنا تقتضي الحضارة الإنسانية قاعدة أساسية من التحرر الحقيقي الكامل للإنسان، ومن الكرامة المطلقة لكل فرد في المجتمع[1] وهذا ما افتقده المجتمع الجاهلي. إذ إن عبودية الغالب الأعم من أفراده للخرافات، قد سلبت منهم السلام والمحبة والفضيلة، وظلوا في صراع دائم مع أنفسهم ومع سائر الناس من حولهم، بسبب الخوف والذعر الدائمين من الموت أو من العدم.

ومن هنا استشرت في الجاهليين قيم سلبية منها: الطيش والمبادرة إلى الشر، وتملك الشهوات والغرائز من نفوسهم، والاستبداد والنهب والسلب وتحكم الأقوياء في الضعفاء، والأغنياء في الفقراء، وغير أولئك من القيم السلبية، التي يمكن أن تشع من لفظ جاهلية أو من لفظ ظلمات في قول العليم الخبير: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [2] فمن أبرز ملامح الجاهلية التي يمكننا رصدها في سجل العرب تحكم الأغنياء في الفقراء، ومدى الهوة السحيقة بين الطبقتين، وأبعاد الضعة والذل والمسكنة في المعدمين، تلك التي ألهبت شاعراً مثل (عروة بن الورد) [3] وجعلت فؤاده يتقاطر دما

---

(١) انظر: معالم الطريق ، سيد قطب ص١٠٨ ، دار الشروق – القاهرة (بدون) .

(٢) إبراهيم / الآية رقم ١.

(٣) عروة بن الورد (...-٣٠ ق هـ =٥٩٤ م) بن زيد العبسي ، من غطفان ، ويعتبر عروة فى حياته المتصعلكة إفرازا من إفرازات النهج الاجتماعي الجاهلي على مستوى الأفراد والمجتمعات ،فلقد اضطهده أبوه صغيرا ، وفضل عليه أخاه الأكبر كما أن قومه قد احتقروه لدنو منزلة أمه فى نسبها عن منزلة أبيه وبنى قومه فانضم إلى الصعلكة ، وشعره بمنزلة شهادة تاريخية واجتماعية على الصعلكة، بوصفها حركة اجتماعية جماعية على نمط من الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى ذلك العصر الجاهلي ينظر:

وحسرة وحزنا على ما آل إليه حال مجتمعه، فأخذ يخاطب زوجه قائلاً: [1]

(وافر)

دعيني للغنى أسعى ، فإني ∴ رأيتُ الناسَ شرُّهم الفقير
وأبعدهم وأهونهم عليهم ∴ وإن أمسى له حسب وخير[2]
ويقصيه الندىّ ، وتزدريه ∴ حليلته وينهره الصغير
ويلفي ذو الغنى وله جلال ∴ يكاد فؤاد صاحبه يطير
قليل ذنبه والذنب جمٌّ ∴ ولكن للغنى رب غفور

إنها تجربة مريرة تمتزج فيها الذاتية بالموضوعية ، من شاعر رفض مرارة الحرمان ، ومنى بنفس أبية تأبى الضيم أو الخنوع لهذه التفرقة العنصرية ، التي تعامل الأفراد على قدر ما يملكون ، فثارت ثورته ، ونصب من نفسه - أو نُصِّبَ زعيما للمضطهدين المقهورين الثائرين على الظلم والظالمين ، وهذه القطعة الشعرية وثيقة تاريخية على الظلم والقهر والتخبط الجاهلي المدحور، فطبقا لهذه الرؤية الشعرية يعد الفقير عند الجاهليين شرَّ الناس وأبعدهم وأهونهم عليهم ، حتى وإن كان له حسب وشرف ، والفقير مذموم من الأغنياء ومزدرى من الحليلة ، ويصل به الحد إلى أن ينهره الصغير ، أما الغنى فله عند اللقاء جلال يكاد فؤاد رائيه يطير فرحا وبهجة باللقاء؛ لا ذنب له مع أن ذنوبه لا تحصى ، ويمعن الشاعر في السخرية اللاذعة إزاء هذا التصرف بقوله :-" ولكن للغنى رب غفور " وما أجمل التعبير الفنى اللغوى "قليل ذنبه والذنب جَمٌّ "

وقد بلغ من إيمان الذات العربية الجاهلية بالنسب أن اعتقدت أن وضاعة النسب لا يزكيه عمل مهما يكن العمل حميداً.

"الشعر والشعراء ٦٧٩/٢ موسوعة الشعر العربي ١٥٥/١ ، ومعجم الشعراء الجاهليين والمخضرمين (سابق) ص٣١٧ .

(١) ديوان عروة بن الورد ، ص٤٥ ، دار بيروت للطباعة والنشر ١٤٠٠ هـ =١٩٨٠م

(٢) خير :-بكسر الخاء الشرف

وقد جعلها هذا المعتقد متغطرسة متعالية في معظم الأحيان، بحيث إن كثيراً من الجاهليين كانت الأنا الذاتية عندهم لها الأولوية المطلقة في كل شيء، لأنها الأفضل من الجميع أحياء وأمواتا. كما جاء على لسان الشاعر الجاهلي (عصام بن عبيد الزمّان) في رسالة شعرية أرسلها إلى أحد أصدقائه قائلا: (١)

أبلغ أبا مسمع عنّي مغلغلةً ∴ وفي العتاب حياةٌ بين أقوام
أدخلتُ قبلي قوماً لم يكن لهم ∴ في الحق أن يدخلوا الأبواب قدّامي
لو عُدّ قبرٌ وقبرٌ كُنتَ أكرمهم ∴ ميتاً وأبعدهم من منزل الذّامِ

فالأنا الشاعرة هنا منتفخة لدرجة التورم، ترى أنه كان من الواجب على المضيف أن لا يقدم علية في الدخول أحدا. وبلغ من تحقيره للآخر أنه عبر عنهم بنكرة (قوم)، ولم يشأ تسميتهم وتحديد هويتهم. يضاف إلى ذلك التفرقة العنصرية بناء على لون البشرة.

ويعد (عنترة بن شداد العبسي) (٢)مثالا في هذا الباب، وفي شعره ما يدل على معايرة الناس له استنادا إلى سواد بشرته ، فهو يقول(٣):

تُعيّرُني العِدا بسَوادِ جِلدي ∴ وَبيضُ خَصائِلي تمحو السّوادا

---

(١) حماسة أبي تمام ج١ /ص٩.

(٢) عَنتَرَة(? – ٢٢ ق. هـ / ? – ٦٠١ م) هو عنترة بن شداد بن عمرو بن معاوية بن قراد العبسي. أشهر فرسان العرب في الجاهلية ومن شعراء الطبقة الأولى. من أهل نجد. أمه حبشية اسمها زبيبة، سرى إليه السواد منها. وكان من أحسن العرب شيمة ومن أعزهم نفسا، كان يوصف بالحلم على شدة بطشه، ويتسم شعره بالرقة والعذوبة.كان مغرما بابنة عمه عبلة فقل أن تخلو له قصيدة من ذكرها. اجتمع في شبابه بامرئ القيس الشاعر، وشهد حرب داحس والغبراء، وعاش طويلاً، وقتله الأسد الرهيص أو جبار بن عمرو الطائي// ينظر: الاشتقاق ص ٣٨ ، ١٣٨، ٢٨٠ ، ٣٩٦ ، والأغانى ٨ / ٢٧٣ ، ٧ ، ١٤٨، وإنباه الرواة ص ١٣٦ ،والبداية والنهاية ٢ / ٢٠٤ ، والبيان والتبيين ١/ ٢١ ، ٨٢ ، ١٢٣ .

(٣) شرح ديوان عنترة، صـ ٥٧، دار صادر، بيروت لبنان .

سَلي يا عَبلَ قَومَكِ عَن فَعالي ∴ وَمَن حَضَرَ الوَقيعَةَ وَالطِرادا
وَردتُ الحَربَ وَالأَبطالُ حَولي ∴ تُهِرُّ أَكُفُّها السُمرَ الصِعادا
وَخُضتُ بِمُهجَتي بَحرَ المَنايا ∴ وَنارُ الحَربِ تَتَّقِدُ اِتِّقادا

وفي هذه الأبيات صراع بين الأنا والآخر ، فالآخر عدو يتطاول على عنترة بالمعايرة ،ولكن الذات العنترية ترد على الأقوال بالأفعال. والتقابل التعبيرى يظهر حجم الصراع بين الذوات :

يعيرني العِدا بِسوادِ جِلدي ∴ سَلي يا عبلُ قومَكِ عَن فَعالي

إن هذه التفرقة العنصرية هي التي جمعت طائفة الصعاليك يدا واحدة – ضمن غيرها من الأسباب – ضد النظم الاجتماعية الفاشلة في العصر الجاهلي[1]. نعم .. هي فاشلة من يوم أن بنيت، لأن أساسياتها هشة إذا ما قيست بعناصر بناء الأمم وعوامل ازدهار الحضارات.

فمن أسسها الظلم والاستبداد والقهر والجبروت، ومن مبادئها الحياة للأقوى، والحكم والتقرير طبقا لإملاء الهوى والنفس والشهوات، يؤكدها قوله تعالى:﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [2]

إنها القيم التي تنشأ فيها الشخصية الجاهلية ، فتسقاها في طفولتها، وتسرى في الأوردة والشرايين وترسخ في العقول عادة ود يدنا تماما مثلما نجدها في عقل الشاعر " عمرو بن كلثوم "[3]

---

(١) راجع: موضوعات ونصوص وقضايا حول الشعر الجاهلي، د/محمد سلامة ص ١٩٨.
(٢) الفرقان / ٤٣ – ٤٤.
(٣) عمرو بن كلثوم (? – ٣٩ ق. هـ / ? – ٥٨٤ م) هوعمرو بن كلثوم بن مالك بن عتّاب، أبو الأسود، من بني تغلب. شاعر جاهلي، من الطبقة الأولى، ولد في شمالي جزيرة العرب في بلاد ربيعة وتجول فيها وفي الشام والعراق ونجد. كان من أعز الناس

وفي قلبه ، مترجمة في معلقته المشهورة على بعدى بالفكر والفن ، فلنحاول الإصغاء إليه حين يهتف بحماس جاهلي:- [1]

(وافر)

وَقَد عَلِمَ القَبائِلُ مِن مَعَدٍّ ∴ إذا قُبَبٌ بِأبطَحِها بُنِينا
بِأنّا المُطعِمونَ إذا قَدَرنا ∴ وَأنّا المُهلِكونَ إذا ابتُلينا
وَأنّا المانِعونَ لِما أَردنا ∴ وَأنّا النازِلونَ بِحَيثُ شِينا
وَأنّا التارِكونَ إذا سَخِطنا ∴ وَأنّا الآخِذونَ إذا رَضينا
وَأنّا العاصِمونَ إذا أُطِعنا ∴ وَأنّا العازِمونَ إذا عُصينا
وَنَشرَبُ إن وَرَدنا الماءَ صَفواً ∴ وَيَشرَبُ غَيرُنا كَدَراً وَطينا

يدور المحتوى الفكري حول الفخر والتغني بقيم بعضها حسن، كإطعام الضيفان، وأغلبها سيئ تمقته سجية الأشخاص الأسوياء المعتدلين، تلكم هي التجبر على الضعيف في القتال، والاستبداد بالآخرين وقهرهم في مصادر العيش والارتزاق، والاحتكام في السلوك إلى هوى النفس والنزوات،بل إن قوله : " ونشرب إن وردنا الماء صفوا ..." البيت يجسد الظلم والقهر والجبروت ،

نفساً، وهو من الفتاك الشجعان، ساد قومه (تغلب) وهو فتىً وعمّر طويلا وهو الذي قتل الملك عمرو بن هند. أشهر شعره معلقته التي مطلعها (ألا هبي بصحنك فاصبحينا .....)، يقال: إنها في نحو ألف بيت وإنما بقي منها ما حفظه الرواة، وفيها من الفخر والحماسة العجب، مات في الجزيرة الفراتية. كان يقال: فتكات الجاهلية ثلاث: فتكة البراض بعروة، وفتكة الحارث بن ظالم بخالد بن جعفر، وفتكة عمرو بن كلثوم بعمرو بن هند الملك، فتك به وقتله في دار ملكه وانتهب رحله وخزائنه وانصرف بالتغالبة إلى بادية الشام ولم يصب أحد من أصحابه. ينظر : الأغانى ٣٨/١١ – ٤٥ ، والاشتقاق ص ٣٣٨ ، وأمالى المرتضى ٥٧/١، ١٠٥، ٢٠١، ٣٢٧ ، والبيان والتبيين ١ / ٥١ ، ٣ / ٢٢ ، ٤٥ ، ٤٨ ، ٤ / ٤١ .ومعجم الشعراء، المرزبانى ص ٢٠٢، والعقد الفريد ٢٧٠/٥.

(١) شرح المعلقات السبع، للزوزنى، صـ ١٣٤.

ويعكس نعرة التعالي والصلف في الشخصية الجاهلية ، فأي صلف وكبر ؟ ، أي تعال وكبرياء ؟ بعد أن تأخذ القبيلة حظها الوافر من الماء العذب الزلال ، ثم تترك للآخرين ما تبقى من كدر وطين . وسواء أكان الشاعر صادقاً أم كاذباً، فإن رؤيته الفكرية لتعكس لنا أنماطاً في السلوك الجاهلي، وقيماً اجتماعية يتوارثها الأبناء عن الآباء، وتصبح جزء اً لا يتجزأ من ملامحهم الشخصية .

وباستقراء الأدوات التعبيرية في الأبيات السابقة نجدها قد اصطبغت بنفسية الشاعر من جهة، واتصلت بأخلاقيات القبيلة وعاداتها من جهة أخرى.

لأن الإطار العام الذى يحيا فيه الفرد آنذاك هو النظام القبلى المحدود ، بضيق أفقه ، وتحجر عقليته ، وقسوة مشاعره . فهو يثور ويغضب حين تثور قبيلته أو تغضب ،ويهدأ بهدوئها ، فلقد كانت "الذهنية البدوية العربية التي سادت العصر الجاهلي ،لا تتصور الكائن الإنسانى إلا داخل مجموعة ، شريعتها العصبية القبلية ، حيث يعد أفرادها نسخاً يطابق بعضها البعض ، ويذوب كل شخص في القبيلة ، ولم تكن العصبية القبلية لتعترف بالتضامن والعلاقات الودية إلا بين من تجمعهم رابطة الرحم ، من قريب أو بعيد "[1]

تلكم العصبية القبلية التي تبدو أصداؤها على لسان المتحدث الرسمى عن قبيلته،إنه شاعرها الفذ،وترجمانها الصادق عن سجاياها وقيمها الموروثة على شاكلة ما جاء في قصيدة (السموأل)[2] التي

(١) الشخصانية الإسلامية ، د/ محمد عزيز الحبابى ص١٢ دار المعارف بمصر

(٢) السموأل (...-نحو ٥٦٥ق هـ= ...-نحو ٥٦٠ م) هو السموأل بن غريض بن عادياء الأزدي ، واسمه صموئيل (السموأل عربياً) يدين باليهودية ورث عن آبائه قصرا يسمى بالأبلق كان محط أنظار للقبائل والمسافرين ، وملجأ لهم فى أسفارهم من

يقول فيها :- [1]

(طـويل)

وَنُنكِرُ إن شِئنا عَلى الناسِ قَولَهُم ∴ وَلا يُنكِرونَ القَولَ حينَ نَقولُ
إذا سَيِّدٌ مِنّا خَلا قامَ سَيِّدٌ ∴ قَؤولٌ لِما قالَ الكِرامُ فَعُولُ
وَما أخمِدَت نارٌ لَنا دونَ طارِقٍ ∴ وَلا دَمَّنا في النازِلينَ نَزيلُ
وَأيّامُنا مَشهورَةٌ في عَدُوِّنا ∴ لَها غُرَرٌ مَعلومَةٌ وَحُجولُ
وَأسيافُنا في كُلِّ شَرقٍ وَمَغرِبٍ ∴ بِها مِن قِراعِ الدارِعينَ فُلولُ
مُعَوَّدَةٌ أَلّا تُسَلَّ نِصالُها ∴ فَتُغمَدَ حَتّى يُستَباحَ قَبيلُ[2]

فالشاعر بوصفه فردا من أفراد القبيلة يدور في فلكها أنّى دارت، وتفرض قبيلته سيطرتها على الآخرين ، بينما يعجز الآخرون فرض سيطرتهم عليها ، أو لم نقل إنه مبدأ الحياة للأقوى ؟ فهو قانون الغاب ود يدن الوحوش ويعن الشاعر في بيانه أن السيادة مستقرة ثابتة في قبيلته إذا مات سيد خلفه آخر، ويفاخر بأن تاريخهم الحربى مشهور للجميع، وأن العزيمة على أخذ الثأر من الأعداء قوية صلبة، لا يعوقها عائق مهما كان.

الغارات ، كانت تقام حوله الأسواق فى المواسم بأرض تيماء بين الحجاز والشام . على أن انتماء السموأل إلى اليهودية كان فى الواقع أضعف التزام فى تركيب شخصيته ، إذ ظلت القيم الجاهلية الفروسية هى أعلى انتماءً له فى سلوكه وفى علاقته مع الآخرين // انظر : الأصمعيات ص ٨٥ ، وأمالى القالى ٢٦٩/١، والبيان والتبيين ٣ / ١٢٧ ، وخزانة الأدب ١ / ٣١٩ ، والحماسة البصرية ١ / ٤٥ ، وموسوعة الشعر العربى ١/ص٣١١،ومعجم الشعراء للمرزبانى ص ١١٩ .

(١) شرح حماسة أبى تمام ، للأعلم الشنتمرى ٢٦٤/١-٢٨٥، ت د/على المفضل حمو دان ، دار الفكر المعاصر ، بيروت -لبنان ، ط أولى ١٤١٣هـ-١٩٩٢م ، وديوان السموأل (بذيل ديوان عروة بن الورد ص ٩٢:٩١

(٢) الفرق بين القبيل والقبيلة: أن القبيل من آباء شتى، والقبيلة من أب واحد.

والشاعر بصياغته الفنية يثبت لقبيلته إرادة اتخاذ القرار ، وسلبها من الآخرين (ننكر – لا ينكرون) عن طريق الطباق إيجاباً وسلباً ، كما نلاحظ استعماله لضمير المتكلمين المتصل في ألفاظه : [شئنا – منا – لنا – أيامنا – عدونا – أسيافنا] مما ينبئ على مستوى الرؤية الشعرية والأداة التعبيرية – عن ذوبان هذه الذات في القبيلة ، دون استقلالية ذاتية ، ودون وضوح شخصيتها وآرائها التي يفرزها عقلها ، في سلوكها الفردى ، واتجاهاتها وعلاقاتها بالآخرين ولكنها العصبية الجاهلية ، يرثها الأبناء مصرين على التمسك بتلابيبها مهما كلفهم ذلك من بذل الغالى والنفيس حتى الموت، أو ليس منطقهم في ذلك ما ورد عنهم في القرآن الكريم ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [1]، واضح استخفاف القرآن بعقول المشركين الذين قلدوا آباءهم بطريقة عمياء ، لا دور للعقل فيها ، ويتكرر الاستهزاء بهذا النمط الفكرى في موطن قرآنى آخر ،في قول الله تعالى :﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [2].

أما الإسلام فإنه " يعتبر الـ (أنا) شعوراً ووعياً، والوعي قبس من نور الله، وعلى العكس من هذا لم تكن الأنا في العصر الجاهلي مركزاً في داخله ، بل مشتتاً على الخارج ، منعدم الذاتية الخاصة ، حسبه المشاركة في ذاتية قبلية مشاعة ، فكيف يستطيع والحالة هذه أن يصل إلى درجة الوعي ، مادام شعوره يذوب في شعور جماعي غير محدد ، قانونه العصبية الضيقة " [3]إطارها

(١) البقرة/ ١٧٠.
(٢) المائدة / ١٠٤.
(٣) الشخصانية الإسلامية ص١٧

الموروث " أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً " فلما جاء الإسلام قلب الرسول -ﷺ- المعنى ، وغير مدلول العبارة من قيمة جاهلية سيئة ، إلى قيمة إسلامية حسنة منيرة للأجيال دروبها في الحياة "[1] .

وإن كانت العصبية ضرورة من ضرورات الحياة بالنسبة لسكان الجزيرة العربية لحمايتهم وصيانتهم من عبث العابثين[2]".

ولكنها إذا جعلت الحق باطلاً، والباطل حقاً، تصبح غير مقبولة أبداً وهي سمة منبوذة، والحكم الفصل بين الوضع الأول والوضع الثاني. هو موقف الإسلام منها، فقد كثرت الآثار في ذمها، واعتبرتها شيئاً خطيراً، وعاملاً دائماً في زلزلة الجماعة.

ورد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: (من خرج من الطاعة، وفارق الجماعة، فمات مات ميتة جاهلية، ومن قاتل تحت راية عميّة يغضب لعصبة، أو يدعو إلى عصبة، أو ينصر عصبة فقتل فقتلة جاهليّة) [3].

ولعل من أبرز الوثائق الجاهلية تدليلاً على هذه الفكرة، ما جاء في قصيدة صاحب الثارات الشاعر " دريد بن الصمة "[4]

---

(١) عن أنس بن مالك – رضي الله عنه –قال : قال رسول الله -ﷺ- انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً ، فقيل: أرأيت إن كان ظالماً كيف انصره ؟ قال : تحجزه أو تمنعه من الظلم ، فإن ذلك نصره " رياض الصالحين ، للنووي ص٨٢ مؤسسة الكتب الثقافية بيروت – لبنان ط ثانية ١٤٠٧هـ -١٩٨٧م .

(٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، د. جواد علي. ج٤ /ص ٣٣٤.

(٣) صحيح مسلم، شرح النووي: ج١٢ – ص ٢٣٨ – ٢٣٩. طبعة القاهرة ١٣٤٩ هـ.

(٤) دريد (...- ٨هـ = ...-٦٣٠م) هو دريد بن الصمة بن الحارث بن معاوية بن خداعة بن غزية الجشمي البكري من هوازن ، شجاع من الأبطال الشعراء المعمرين في الجاهلية وكان

والتي مطلعها: [1] . . (طـويل)

أَرِثَّ جَديـدُ الحَبلِ مِن أمِّ مَعبَـدِ .·. بعاقِبَـةٍ وَأخلَفَـت كُـلَّ مَوعِـدِ؟! [2]

حيث يقول :-

وَهَل أنا إلّـا مِـن غَزِيَّـةَ إن غَـوَت .·. غَوَيـتُ وَإن تَرشُـد غَزِيَّـةُ أرشُـدِ [3]

دَعاني أخي وَالخَيلُ بَيني وَبَينَـهُ .·. فَلَمّـا دَعـاني لَـم يَجِـدني بِقَعـدَدِ [4]

أخـي أرضَـعَتني أُمُّـهُ بِلِبانِهـا .·. بِثَـدي صَـفاءٍ بَينَنـا لَـم يُجَـدَّدِ

فالرشاد والغواية متوقف أمرهما على القبيلـة ، يرشـد ابنهـا لرشادها ، ويضل معها ويغوى أينما ضلت وغوت ، ولكن أنى لهـا

سيد بنى جشم وقائدهم ، قتل إخوته الأربعة فى المعارك ، ممـا جعله يقسم على الثأر والانتقام من الأعداء ، فغزى نحـو مائـة غزوة ، وشعره وثيقة تاريخية فى هذا المعترك الـدموى الـذى خاضته قبيلته ،قتل على شركه يوم حنين ، وقد استصحبته هوازن معها تيمنا به وهو أعمى. / ينظر: معجم الشعراء للمرزبانى ص ٨٩، والاشـتقاق ص ٢٩٢، والأصـمعيات ص ١٠٥، ١١١، والتذكرة الفخرية ص ٣٩، والحماسة البصرية ١ / ٤، ٣٥، ٧٦، ٢٧١، والبيان والتبيين ١ / ١٠٧، ٢٣١، ٣ / ٩٩، ٣٣٠، والبداية والنهاية ٢ / ٣١٥، ٤/ ٣٢١، ٣٢٢ موسوعة الشـعر العربـى ١/ص٥٩١، والشعر والشعراء ٢/ ص٧٥٣.

(١) ديوان دريد بن الصمة، صـ ٢٢.

(٢) الرَثُّ: الشيء البالي، وجمعه رثاثٌ. وقد رَثَّ الحبلُ وغيره يَرِثُّ رَثَاثَةً. وفلانٌ رَثُّ الهيئةِ، وفي هيئته رَثَاثَـةٌ، أي بـذاذةٌ. وأرَثَّ الثوبُ، أي أخلَقَ. والرثُّ: السَقَطُ من متاع البيت مـن الخُلقـان؛ والجمع رثَّثٌ ورثاثٌ. وارتَثَثنا رثَّة القوم، أي جمعناها

(٣) غزية بن جشم : قبيلة ومن قبائل بني جُشَمَ: بنو غَزِيَّة. والغَزِيَّة: فعيلة من الغَزْو. والغَزِيُّ: الجماعة من القوم يَغزُون. وغـزْوان: فعْلان من الغَزْو، لأنَّ أصل الغزو الواو.فمن بني غَزِيَّة: دُرَيد بن الصِمَّة بن جُدَاعة بن غَزِيَّة. ودُرَيد: تصغير أدرد. والأدرد: الذي تحاتَّتْ أسنانُه، والأنثى دَرْداء. ، غوت : ضلَّتْ .

(٤) القـعدد : الجبان .

الرشاد وعزيمتها على الثأر لقتلاها تزداد وتقوى في نفوسهم يوماً بعد يوم ؟!

وفي كثير من الأمور ظل مفهوماً أنه" ليس من العصبية والأخوّة القبلية أن تسأل أخاك عمّا وقع له. عليك تلبية ندائه، وتقديم العون له، معتدياً كان أم معتدى عليه[1]" وقد افتخر الشعراء بتلبية النداء. وإبعاد السؤال، كما في قول الشاعر القريط[2]بن أنيف: [3]

لو كنتُ من مازن لم تستبح إبلي ∴ بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا
إذاً لقام بنصري معشرٌ خشنٌ ∴ عند الحفيظة إنْ ذو لوثة لانا
قومٌ إذا الشّر أبدى ناجذيه لهم ∴ طاروا إليه زرافاتٍ ووحداناً
لا يسألونَ أخاهم حينَ يندُبهم ∴ في النائباتِ على ما قالَ بُرهانا

والقرآن يحدثنا عن مكانة المرأة عند أولئك الذين قست قلوبهم: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [4]

وقوله تعالى :﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ ﴾ [5]

ولقد كانت المرأة آنذاك محرومة الميراث، وكانت تعاشر في السفاح والبغاء ، وكانت في الغالب كقطعة من أثاث البيت تنتقل تبعيتها لمن يرث البيت ، فكانت هذه المرحلة الزمنية بحق وصمة عار في جبين التاريخ العربى والإنسانية .

على أن مكانة المرأة في الإسلام نموذج ومفخرة لها بين بنات جنسها، فلقد " خولت الشريعة الإسلامية المرأة حقوقاً لم تتمتع بها من قبل، ومنحتها مزايا تتجلى قيمتها للناس كلما تقدم الزمن.

---

(١) المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام. د. جواد علي: ج٥/٣٣٤.
(٢) لم أعثر له على ترجمة .
(٣) شرح الحماسة للتبريزي – ج١/ ص١٨ – ١٩. طبعة القاهرة ١٩٥٥.
(٤) النحل / ٥٨-٥٩ .
(٥) التكوير / ٨-٩ .

وساوتها بالرجل مساواة تامة في مباشرة كافة التصرفات والوظائف الشرعية، وقيدت تعدد الزوجات بتحديد الحد الأقصى لعدد النساء اللاتي يجوز للرجل أن يجمع بينهن في وقت واحد، ألزمت الرجل بالعدل بينهن جميعاً "[1] وأصبحت المرأة إلى جانب الرجل تحتل مكانة في التشريع الإسلامي، وأصبحت لها حقوقها من قبل الإسلام على مستويات الطفولة والزوجية والأمومة، وفي شتى مواقعها وأزمنتها.

حتى أفرز الإسلام منهن عالمات فضليات في الجوانب التشريعية والعقدية والفكرية أمثال أمهات المؤمنين رضى الله عنهن – بل وصل الأمر إلى أن قادت السيدة عائشة – رضى الله عنها – الجيش في موقعة الجمل في فتنة الخلافة.

لأن الإسلام يهذب النفوس والعقول والقلوب والأبدان، والشرك والوثنية ليس لهما دخل في كل ذلك مما حذا ببعض النفوس إلى التذمر من هذا الوضع الجاهلي المشين المتخبط في متاهات الظلام، إذ لم يتوحد أفراد هذا المجتمع على توحيد إله واحد، له الملك والملكوت، وإنما توزعوا بين آلة عديدة، وأرباب شتى ، لا تملك لنفسها ضرا ولا نفعا مما دفع بأحد المتذمرين الثائرين أن يفرز تجربة شعرية حملها دهشته ، وأنبأ فيها عن دينه وعقيدته مع شئ من التأمل في الحياة والأحياء .

إنه (زيد بن عمرو بن نفيل) [2] الذى قال:-

---

(١) روح الإسلام، السيد أمير على ٢/ ص١٠٧ ترجمة أمين محمود الشريف، مراجعة محمد بدران، مكتبة الآداب ومطبقها بالجماميز، ١٩٦١ م.

(٢) زيد (..-١٧ ق هـ =...-٦٠٦ م) هو أبو سعيد زيد بن عمرو بن نفيل، بن عبدالعزى ، ينتهى نسبه إلى النضر بن كنانة ، اعتزل الأوثان ولا يأكل ما ذبح عليها ، وفارق الأديان من اليهودية والنصرانية ، وكان يعبد الله على دين إبراهيم عليه السلام ، وكان مضطهداً فى قومه بسبب هجومه على معتقاتهم ، وكان يعتزلهم ،

(وافر) [1]

أربٌّ واحدٌ أم ألفُ ربّ ∴ أدينُ إذا تقسّمت الأمورُ ؟
عزلتُ اللات والعزى جميعاً ∴ كذلك يفعل الجلدُ الصبورُ
فلا العزّى أدينُ ولا ابنتيها ∴ ولا صنمي بني عمرو أزورُ
ولا هبلاً أدينُ ، وكان ربّاً ∴ لنا في الدهر إذ حلمي يسيرُ
عجبتُ وفي الليالي معجبات ∴ وفي الأيّامِ يعرفها البصيرُ
بأن الله قد أفنى رجالاً ∴ كثيراً كان شأنهم الفجورُ
وأبقى آخرين ببرّ قومٍ ∴ فيزبلُ منهم الطفلُ الصغيرُ [2]

إنها دفقة تذمر امتلأ قلب الشاعر بها ، فاندفع في تجربته الثائرة وهو في حالة استفزاز وعدم استقرار ذهني ، إنها الحيرة والدهشة والحسرة على مسلك الجاهليين ، فجاء استفهامه (أرب واحد أم ألف رب .. ؟ (فكانت هذه الانتفاضة وغيرها بمثابة صرخات واستغاثات من بعض الشخصيات فيما قبل الإسلام ، من أجل منقذ لهم من الضلال المبين ، وسواد ليل بهيم .

فبعث رسول الإنسانية محمد بن عبد الله (ﷺ) وكان من المفروض عقلا وعادة أن يستقبل المنقذ بالترحاب والتهليل، وبالطاعة والانقياد، ولكن الصلف والتكبر والعناد والجحود وقفت كلها سدودا مانعة دون تحول الشخصية الجاهلية من أطوار الظلم والضباب إلى أطوار النور والصفاء، فتمادى أهل الكفر والإشراك في إيذائهم للنبي ودعوته ، و جعلهم تحديهم له يطلبون المعجزات

ولا يأكل ذبائحهم ، رآه النبي قبل النبوة ، وسئل عنه بعدها ، فقال : يبعث يوم القيامة أمة وحده ، توفي قبل البعثة بثلاثة أعوام // انظر :الاشتقاق ص ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٦٥ ، والإصابة ١ / ٥٥٢ – ٥٥٣ ، والأغاني (ثقافة) ٣ / ١١٧ – ١٢٥ ، والسيرة النبوية ١ / ٢٣٩ – ٢٤٤، البداية والنهاية لابن كثير ١/ص٦٦٧-٦٦٨ ط دار الغد العربي ط ثانية١٩٩٠م ومعجم الشعراء ص١٤١ .

(١) البداية والنهاية ١/ ص٦٦٨.

(٢) يُزْبلُ :- يُهرم ويشيب .

واحدة بعد الأخرى ، ولكن " لم يكن طلب المعجزات من النبى ناشئا عن ترو من العرب وصدق رأى وسلامة فطرة وإصرار منهم على أن يقبلوا شيئا إلا ببرهان ، وإنما كانوا يقترحونها إما عبثا أو عنادا أو عملا بما تلقفوه عن الجاهلية الأولى ، وما أملت عليهم نفوسهم التي أخذ الضلال بتلابيبها "[1].

ولكن الذين هداهم الله ، يطلقون كلماتهم سهاماً في وجوه المشركين على شاكلة (عبد الله بن رواحة)[2]الذى يعنفهم بقوله[3]: (طويل):

عصيتم رسولَ اللهِ أفّ لدينكمْ ∴ وأمركم الشّيئ الّذي كانَ غاويا
وإنّي وإنْ عنّفتموني لقائلٌ ∴ فِدًى لرسولِ اللهِ أهلي ومالِيا
أطعناهُ لم نعدلهُ فينا بغيرِهِ ∴ شِهاباً لنا في ظلمةِ اللّيلِ هاديا

وما أجمل هذه القوة الإيمانية في (ابن رواحة) التي حذت به أن يجعل من أهله وماله فداء لرسول الله (ﷺ) .

---

(١) أنظر الإسلام دين الفطرة والحرية ، الشيخ عبد العزيز جاويش، ص٤٦-٤٧ ، دار المعارف بمصر ١٩٦٨ م

(٢) عبد الله بن رواحة (? - ٨ هـ / ? - ٦٢٩ م) هو عبدالله بن رواحة إلى قبيلة الخزرج، من الله عليه بالإسلام فى العقبة الثانية، وهو شاعر فارس، وصحابى جليل، وقائد من قواد معارك الإسلام وأحد شخصيات المسلمين الفذة، الذين دافعوا عن الدين بالسنان واللسان، شهد بدراً وأحد والخندق والحديبية حتى استشهد فى مؤته فى السنة الثانية للهجرة ٦٢٩م .// انظر : الاستيعاب ، ابن عبدالبر ٢/ص٨٩٨-٩٠١ تحقيق على محمد البجاوى ، نهضة مصر ، الفجالة ، القاهرة (بدون) ، الطبقات الكبرى لابن سعد ٣/ ٧٩ ، والتذكرة الفخرية ص ٣٧ ، خزانة الأدب ٢ / ٣٠٣ ، ٣ /٣٨ ، وصفة الصفوة ١ / ١٩١ ، والمؤتلف والمختلف ، للآمدي ص ١٢٦ ومعجم الأدباء ص١٩٥ .

(٣) ديوان عبد الله بن رواحة (ودراسة فى سيرته وشعره) د/ وليد قصاب ص١٣٨ دار العلوم للطباعة والنشر ، الرياض ، السعودية ١٤٠٢هـ=١٩٨٢م

وما أحلى وأجمل هذه الصورة الشعرية التي صور فيها رسول الله بالشهاب الثاقب الذى يضئ ظلمات الليل ، ويهدى الحائرين إلى طريق الهدى والرشاد ومن هنا فهو يتوجه إلى الصادق الأمين بقوله[1]:- (بسيط)

إنّي تفرّست فيكَ الخيرَ أعرفهُ ∴ واللهُ يعلمُ أنْ ما خانني البصرُ
أنتَ النّبيّ ومن يحرم شفاعتهُ ∴ يوم الحساب فقد أزرى به القدرُ
فثبّتَ اللهُ ما آتاك من حسنٍ ∴ تثبيتَ موسى ونصراً كالّذي نُصروا

والأبيات مع بساطتها في التعبير وتلقائيتها جاءت معبرة عن حب (ابن رواحة) للشخصية المحمدية ، وإيمانه القوى بدعوته ورسالته ، وهى تنم عن شفافية الشاعر كشخصية إسلامية مجاهدة ، هذبها الإسلام وصاغها صياغة جديدة .

ذلك أن الإسلام يهتم بتربية الفرد والجماعة معاً، ويولى رعاية فائقة لكل الأفراد على مستوى القمة والقاعدة، متخطياً في ذلك حدود العرق والجنس واللون، في تشريع إلهي كامل، لا يمكن أن يوجد له مناظر في تشريعات وأنظمة العالم كله، قديمه وحديثه، لأن التشريع الإسلامي هو من المعبود إلى العباد، ومن الخالق إلى المخلوق. مصداقاً لقوله تعالى:﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [2]. ولقد ربى الرسول (ﷺ) أصحابه المؤمنين على هذا النهج القويم ، كما كان إيمان السلف دافعاً لهم إلى استلهام تعاليم الإسلام وقيمه الرفيعة ومثله العلى ، وأيقنوا أن القرآن هو كلام الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وظل الكلام عن النبى يقرن بمعجزته ومنهجه الخالد ، مثلما جاء في رؤية (عباس بن مرداس) [3]

---

(١) ديوان عبد الله بن رواحة ص١٥٩ .
(٢) الملك /١٤.
(٣) العَبّاس بن مر داس (? - ١٨ هـ / ? - ٦٣٩ م) هو العباس بن مرداس بن أبي عامر السُّلمي، من مُضَر، أبو الهيثم.شاعر فارس، من سادات قومه، أمُّه الخنساء الشاعرة.أدرك الجاهلية

الشعرية حيث يبين أثر القرآن فيهم قائلاً :- (١)

(طويل)

رأيتُك يا خيرَ البرية كلها ∴ نشرتَ كتاباً جاء بالحق مُعلماً
شرعتَ لنا فيه الهدى بعد جورنا ∴ عن الحق ، لما أصبحَ الحق مظلماً
ونورت بالبرهان أمراً مدنّساً ∴ وأطفأتَ بالقرآن ناراً تضرّما
فمن مبلغ عني النبي محمداً ∴ وكل امرئ يجزى بما كان قدما
أقمتَ سبيل الحق بعد اعوجاجه ∴ وكان قديماً ركنه قد تهدّما
تعالى علواً فوق عرش إلهنا ∴ وكان مكان الله أعلى وأعظما

وإيمانا من الشاعر بقضيته لجأ إلى التجسيد والتجسيم في رسم الصورة المعنوية لأثر الإسلام بمنهج القرآن في نفوس المسلمين آنذاك، إذ شكلها الشاعر من لبنات حسية هي (النور – الظلام –

والإسلام، وأسلم قُبيل فتح مكة، وكان من المؤلفة قلوبهم ويُدعى فارس العُبَيْد، وهو فرسه، وكان بدوياً قحاً، لم يسكن مكة ولا المدينة وإذا حضر الغزو مع النبي ﷺ، لم يلبث بعده أن يعود إلى منازل قومه وكان ينزل في بادية البصرة وبيته في عقيقها، وهو وادٍ مما يلي سفوان، وأكثر من زيارة البصرة، وقيل: قدم دمشق وابتنى بها داراً.وكان ممن ذمّ الخمر وحرّمها في الجاهلية. مات في خلافة عمر.. // : انظر : السيرة النبوية ٢ / ٤٩٣ ، والاستيعاب ٢/ص٨١٧–٨٢٠ ، وأسد الغابة ٣/ص١٦٨– ١٧١ ، ومعجم الشعراء ص١٩١ ، والطبقات الكبرى لابن سعد ٤ /٢٧٢، ووفيات الأعيان ١/ص٤٣١ ، ابن خلكان تحقيق د/ إحسان عباس، دار الثقافة ،بيروت – لبنان (بدون) ،وأمالى القالى ١ / ٧، ٤٦ ، ٣ / ٦٠ ، ديوان العباس بن مرداس ص١٣ (المقدمة) بتصرف ، جمع وتحقيق د/يحيى الجبورى ، مؤسسة الرسالة – بيروت – لبنان ط أولى ١٤١٢هـ=١٩٩١م ولم أعثر على هذه الأبيات فى ديوانه .

(١) الجليس الصالح الكافى والأنيس الناصح الشافى ، للمعافى بن زكريا ص ١٢٥ ، بتحقيق د / محمد مرسى الخولى ، ١٩٨١ م ، ونضرة الاغريض فى نصرة القريض ، للمظفر العلوى ، ص٣٠٣، تحقيق دكتورة / نهى عارف الحسن، دمشق، ١٩٧٦م.

النار) ويسيطر الطباق العفوي على معجم الصورة الكلية مما ينبئ عن المفارقات الملموسة والمحسوسة بين الحياتين (الجاهلية والإسلام)

فالمعجم المتصل بالجاهلية يتمثل في (الجور – الحق مظلم – نارٌ تتضرم – اعوجاج سبيل الحق وتهدمه) وأما المعجم المتصل بالإسلام فيتمثل في (الهدى – نوِّرت بالبرهان – أطفأت بالقرآن – أقمت سبيل الحق).

ومثل هذه الرؤية لا تصدر إلا عن تجربة عايشها الشاعر واستقرت في مشاعره ووجدانه، ذلك أنه عاش الحياتين قبل الإسلام وبعده، وهو كثيراً ما كان يتعارك بالسيف والكلمة مع ابن عمه (خفاف بن ندبه) من أجل الزعامة على قبيلتهما(سليم)[1] ونقائضه الشعرية تترجم عن قوة المعترك بينهما، ولكنهما أسلما وحسن إسلامهما.

وكان أمثال هؤلاء الشخصيات الرائدة، يلتقطون الآية الكريمة، بعد أن يوحى بها قرآناً إلى النبى، فيتسابقون على تطبيقها عملاً وسلوكاً فاضلا، فأغنانا (حسان بن ثابت)[2]عن معلومة نستأنس بها في التدليل على ذلك المظهر في الصحابة الأخيار فيقول:[3]

(كامل)

اللّهُ أكرَمَنا بنَصرِ نَبيِّهِ ∴ وَبِنا أقامَ دَعائِمَ الإسلامِ
وَبِنا أعَزَّ نَبيَّهُ وكِتابَهُ ∴ وأعَزَّنا بالضَّربِ والإقدامِ
في كُلِّ مُعتَرَكٍ تُطيرُ سُيوفُنا ∴ فيهِ الجَماجِمَ عَن فِراخِ الهامِ
يَتلو عَلَينا النورَ فيها مُحكَماً ∴ بِفَرائِضِ الإسلامِ وَالأحكامِ
يَتلو عَلَينا النورَ فيها مُحكَماً ∴ قَسَماً لَعَمرُكَ لَيسَ كَالأقسامِ
فَنَكونُ أوَّلَ مُستَحِلٍّ حَلالَهِ ∴ وَمُحَرِّمٍ لِلّهِ كُلَّ حَرامِ

(١) تراجع هذه النقائض فى ديوانه ص٣٥، ٥٢ ، ٥٧ ، ٧٥ وغيرها.
(٢) ستجيئ ترجمته فى الفصل الثالث.
(٣) ديوان حسان بن ثابت ص١٤٣ .

نَحنُ الخِيارُ مِنَ البَرِيَّةِ كُلِّها ∴ وَمُحَرِّمٌ لِلّهِ كُلَّ حَرامِ
الخائِضو غَمَراتِ كُلِّ مَنِيَّةٍ ∴ وَالضامِنونَ حَوادِثَ الأَيّامِ
وَالمُبرِمونَ قُوى الأُمورِ بِعَزمِهِم ∴ وَالناقِضونَ مَرائِرَ الأَقوامِ

إن شاعر النبى يفاخر بأن الصحابة والأنصار خاصة هم الذين نصروا النبى ودعوته،وبهم أقيمت دعائم الإسلام ثم يبين أنهم أول من يستحل الحلال ويحرم الحرام بعد نزول الوحى بآيات الذكر الحكيم.

بل إن كلماته (الإسلام ، الأحكام ، الحلال ، الحرام) كلمات تغير مسارها الدلالى ، وتخطت في معانيها ما تضمنته الدلالة المعجمية مثل غيرها من الألفاظ كالنفاق والإيمان والصلاة والزكاة . إن تأثيرات المنظومة الفكرية والعقائدية الجديدة على بعض تشكلات المعنى وعلى اللغة كانت واضحة، لكن عنصر الدين في بداية الإسلام ارتبط بالهوية وسط الصراع بين ضفتين أو معسكرين، فإذا كان تمايز الهويتين من الناحية الفنية غير ممكن، فإن الدين سيشكل الهوية الجديدة لمجموعة تقاتل من أجل الوجود، فالمسألة السياسية لا تجد تعبيرا ممكنا لها إلا في نطاق الصراع الديني، ومن ثم يأخذ أهمية خاصة في النص الشعري.

لقد كتب حسان بن ثابت يقول بعد مقدمة في وصف الأطلال والمرأة[1]:

عَدِمنا خَيلَنا إن لَم تَرَوها ∴ تُثيرُ النَقعَ موعِدُها كَداءِ
يُبارينَ الأَسِنَّةَ مُصعِداتٍ ∴ عَلى أَكنافِها الأَسَلُ الظِماءِ
تَظَلُّ جِيادُنا مُتَمَطِّراتٍ ∴ تُلَطِّمُهُنَّ بِالخُمُرِ النِساءُ
فَإِما تَعرِضوا عَنّا اعتَمَرنا ∴ وَكانَ الفَتحُ وَانكَشَفَ الغِطاءُ
وَإِلّا فَاصبِروا لِجِلادِ يَومٍ ∴ يُعِينُ اللَهُ فيهِ مَن يَشاءُ

فالنص مكون من التقابل بين ضدين، يرمز حسان بضمير الجمع المتكلمين (نا) وحتى من خلال نفسه إلى الجماعة والهوية الجديدة، ويختصر بضمائر المخاطب الهوية المناوئة، فهما يكونان في النهاية

(١) ديوان حسان بن ثابت الأنصاري،مطبعة الإمام،مصر(د.ت)ص٩.

طرفي الصراع. ولكن النص ينبني على شحن العناصر الجديدة الدالة على مضمون فخري ومدحي وهجائي جديد، يستند إلى الدين ويتعالق مع نصوصه، فنسبة العون إلى الله وتأييده لهم بالجند، ووجود جبريل الذي لا كفاء له إلى جنبهم، يضمر تساميا عن الطرف الآخر الذي لا ملاذ له إلا العباد الضعفاء الذين ثبتت هزيمتهم رغم عددهم وعدتهم.

إن عنصر الدين في فترة الصراع الأولى بين المسلمين وغير المسلمين، كان يشكّل تجسيدا للذات، ويرتبط بها، وقد تكون أبيات (نهار بن توسعة)[1] أكثر وضوحا للتعبير عن مكانة المكوّن الديني في تشكيل الذات الإسلامية ، وهي قوله [2] :

أبي الإسلامُ لا أبَ لي سواهُ ∴ إذا هتفوا بِبَكر أو تميم
دَعيَّ القوم ينصر مُدّعيه ∴ فيُلحقُه بذي النسب الصّميم
وما كرمٌ ولو شَرُفت جدود ∴ ولكنّ التقيّ هو الكريم

إن هذه القطعة لشديدة الدلالة على رفض الذات الجاهلية وتأسيس ذات جديدة، فالفكر والمجتمع الإنساني يؤسس الانتماء طبقا للأبوة، وعليها يكون النسب، ومنه يرفض حصر ذاتيته في قومه بكر، بل يضعها في مقابل ذاتية أكثر شمولا وحيوية، وهي الإسلام، وهي أكبر من النسب والادعاء والولاء، والشرف يتنزل في أبياته من خلال النص الذي تداخل معها، وهو الذي يحصر تفاوت الناس انطلاقا من معيار التقوى.

وقد كان الدستور القرآني في هذا الصدد قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [3] .

---

(١) هو نهار بن توسعة بن أبي عتبان، من بكر بن وائل، من بني حنتم وكان أشعر بكر بن وائل بخراسان .الشعر والشعراء ، ابن قتيبة ، ص ٢٧٠ .
(٢) الشعر والشعراء، ص ٢٧١.
(٣) الحجرات/ ١٣

وإذا كانت الهوية قد اكتسبت دلالات جديدة ، فإن الذين تبدلت على أيديهم هذه الدلالات قد اكتسبوا قيماً جديدة لم يألفوها في جاهليتهم . فلقد فطن المسلمون إلى حقيقة هذا الدين العظيم ، وفقهوا جوهره ، وحازوا جواهره ، وأصبح لسان حالهم يقول : [1]

ولكن دين الله ، دين محمد ∴ رضينا به فيه الهدى والشرائعُ
أقام به بعد الضلالة أمرنا ∴ وليس لأمرٍ حمّهُ الله دافعُ

أنها شخصيات شكل الإسلام طبائعها تشكيلاً جديداً ، وصاغ أنفسها صياغة فريده ، " إن هذا الدين الرائع شكل من أول لحظات حلوله على الأرض ثورة عارمة على كل الخرافات ، وقاد للمرة الأولى في تاريخ العقائد حركة تحرير شاملة، للعقول من الخرافة،وللجذوع من الانحناء،وللقلوب من التشريك ، وللأرض من الغاصبين ،وللتاريخ من الكذب،وللقيم من الادعاءات ،وللعلاقات من الدنس "[2] فهذا العهد الجديد ، عهد الإسلام بشتى مصادره التشريعية يعد عهد الإنسان والإنسانية ، إذ أصبح الإنسان في الإسلام محط رعاية واهتمام بالغ ، ولقد تناولت الشريعة حقوق الأبناء منذ تكوينها في الأرحام أجنحة ، وفي الطفولة المتقدمة والمتأخرة والشباب .

بل تعدى الإسلام رحلة الاهتمام بالفرد و الأسرة وتنظيم علاقاتها إلى مرحلة إعداد وتقويم الساسة والقادة والزعماء على مستوى الدولة أو الأمة . أعنى أن الشريعة في الاهتمام بالذات الإنسانية بناءً وتكويناً جمعت بين القمة والقاعدة فمثلاً:- الصلاة والصوم .. تهذيب وتربية وتطهير للإنسان المسلم ، والزكاة تكافل بين أفراد المسلمين وتآلف وتوادد بين الأفراد ،والحج توحد والتفاف حول هدف واحد ومصير واحد ، إنها الأممية التي دعا إليها الإسلام

---

(١) البيتان للعباس بن مرداس ، ديوانه ص١٠٩

(٢) فى الفكر الإسلامى من الوجهة الأدبية ، / محمد أحمد العزب ص٤٣ المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ١٩٨٣م

وزرعها في أفراد المجتمع الإسلامي ،وهذه العناصر العامة فصلتها كتب الفقه وكان الإنسان ذكراً وأنثى محط اهتمامها ، وغاية ما تصبو إليه ، لأنه خليفة الله في أرض الله ، يعيش ويبنى ويعمر بمنهج الله الواحد الأحد ، إذ " يمتاز الإسلام على ما سبقه من أديان إلهية ، وما لحقه من معتقدات ومذاهب بشرية بأنه دين تكوين فردى ، ودين سياسة جماعية معاً ، فهو قبل أن يخطو في سياسة الأمة خطواته القوية النيرة ، يمنح الفرد فرصاً واسعة ، ودروساً مانعة لتربية نفسه على أطايب الخلق ، وتزكية روحه ، وتنقية مشاعره ، وتصفية خواطره من وسوسة الشيطان ، بعصيان أو كفران " (١) .

والمطالع لآيات الذكر الحكيم،والسنة النبوية المطهرة يدرك مدى الاهتمام بالفرد،من حيث تربية نفسه على القوة واحتمال المشاق.كى تكون لديه المقدرة على مقاومة المغريات وتخطى العقبات في طريق النور.

وهاهي ذي بعض النصوص القرآنية في هذا الشأن ، كقول الله تعالى :﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾ (٢) .

كما يضع للأفراد النموذج والقدوة على لسان لقمان لابنه وهو يعظه قوله تعالى :﴿ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾ (٣) .

وقال تعالى في حق المؤمنين الصادقين :﴿ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ (٤) .

---

(١) على مائدة القرآن (دين ودولة) ، د/ أحمد محمد جمال ص١٢٩، دار الكتاب العربى ، بيروت ، لبنان ، ط٣٧

(٢) الأعراف / ٢٠١ .

(٣) لقمان / ١٧ .

(٤) الشورى / ٣٧ .

وقال رسول الله -ﷺ- لرجل يستوصيه :- " لا تغضب فـردد الرجل قوله أوصنى الإجابة واحدة " لا تغضب " (١) .

كما حث القرآن على التواضع،والعفو عند المقدرة ، والإعراض عن الجاهلين ، معالجاً بذلك مثالب الجاهلية ومزيلاً أدرانها العالقـة بالشخصية ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾(٢) وقوله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ (٣)

والإسلام في تربيته للأفراد صنع شخصية قادرة علـى القيـادة وسياسة الأمور، شخصية لديها إمكانات تحمل المسئولية ، إنها توقن بأنه﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (٤)، وقولـه تعـالى: ﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴾(٥)، وقوله سبحانه :﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ (٦)

كما عمل الإسلام على تنمية روح الأخوة بين أفراد المسـلمين كأمة لها كيانها ، ولها شخصيتها المتميزة بين سائر الأمم والشعوب قولـه تعـالى:﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾(٧) وقوله تعالى :﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ

---

(١) رياض الصالحين ، ص١٨٨ .
(٢) الأعراف / ١٩٩ .
(٣) الفرقان / ٦٣ .
(٤) فاطر / ١٨ .
(٥) القمر / ٥٣ .
(٦) الطور / ٢١
(٧) الحجرات /١٣.

بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (١) ، وقوله تعالى : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (٢) ويقول النبى رسول الإنسانية : " مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى "(٣) ومن هنا .. أخذت الشخصية تعي أن القوة في الاتحاد والتعاضد والتآلف ، وأن الضعف في الفرقة والتنافر والتباغض . ولم يعد التعصب إلى القبيلة معيارا صائنا وإنما التعصب إلى عقيدة التوحيد ومنهج الإسلام .

ولم يعد الأصل والحسب والنسب هو المعيار الأوحد في المفاضلة بين الأفراد أو القبائل وإنما أصبح المعيار هو ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (٤) هذا المعيار هو الذى أفرز شخصيات كادت أن تطحنها الجاهلية بأنيابها الشرسة ، ولولا الإسلام ما كان لأحد أن يذكر اسمهم على لسانه لأى سبب من الأسباب وأخذ العالم يردد أسماء مثل بلال بن رباح الحبشى الذى مثل جانب الإعلام والمساواة على أساس العقيدة ، وسلمان الفارسى الذى احتل مكانا جعل الرسول

(١) التوبة / ٧١
(٢) الفتح / ٣ .
(٣) صحيح مسلم ٢/٤٣١ .
(٤) الحجرات / ١٣ .

يقول عنه " سلمان منا أهل البيت"[1] ، وعمار بن ياسر ، وصهيب الرومي ، بل قل : لولا الإسلام ما كان يعرف شيء عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي – رضي الله عنهم أجمعين . فحق للشاعر " الصاحب بن عباد " [2] أن يقول :– [3] (طويل)

لعمرك ما الإنسانُ إلاّ بدينه ∴ فلا تترك التقوى اعتماداً على النسب
لقد رفع الإسلام سلمان فارس ∴ وقد وضع الشرك الشريف أبا لهب

فالإسلام قد أجتث من الذات العربية صفات وعادات جاهلية ممقوتة ، وبه غرست فيها سمات وعادات إسلامية مثلى،وبه تحول العرب من إطار القبلية الضيقة إلى نطاق الأممية الشاملة فلقد "دخل العربى مرحلة تاريخية جديدة ، على مستوى العلم بذهنية وقيم وسلوك لم يكن له سابق معرفة بها ، إذ تجاوز فرديته وحدود القبلية والجنس .فانتسابه (للأمة) أصبح مسئولا هو عينه – كفرد – عن جميع أفعاله تجاه الإله الكائن المطلق ، تجاه جميع الكائنات البشرية باعتبارها أنداده وإخوانه ، لأنهم جميعاً مخلوقات الله الكائن – الكل– الأحد "[4] .

---

(١) الاستيعاب ٢/ص٦٣٨ .

(٢) الصاحب بن عباد (٣٢٥٦-٣٨٥هـ=٩٣٨-٩٩٥م) إسماعيل بن عباد العباسى ، أبو القاسم الطالقاني ، وزير وأديب ، استوزره مؤيد الدولة بن بويه وأخوه فخر الملك ، لقب بالصاحب لأنه صحب مؤيد الدولة منذ صباه فكان يدعوه بذلك، ولد فى الطالقان من أعمال قزوين ونسبته إليها ، توفى بالرى ونقل إلى اصبهان ودفن فيها ، له مؤلفات (الكشف عن مساوئ شعر المتنبى – عنوان المعارف وذكر الخلائف) ابن الوردى ١/ص٣١٢ ، وفيات الأعيان ١/ص٢٢٨ ، اليتيمة ٣/ص٢٢٥ ، ابن خلدون ٤/ص ٤٦٦ .

(٣) ديوان الصاحب بن عباد ص ١٨٣ تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين ، مكتبة النهضة ، بغداد ط أولى ١٣٨٤هـ١٩٦٥م .

(٤) انظر: الشخصانية الإسلامية ص٩ .

ومن يستقرئ شعر النقائض في عصر البعثة المحمدية – بوصفه وثيقة تاريخية صادقة على المعترك العقدي بين الذات العربية المشركة والذات المسلمة – فسيجد أن الشعر الإسلامي قد سجل ورصد كثيراً من مثالب الذوات التي ظلت على شركها وجاهليتها، وسيجدها من جانب آخر تنم عن وعي وحس جديدين في الذات الإسلامية وهو الانتقال من إطار القبلية الجاهلية، إلى نطاق الأممية الإسلامية "[1] .

هكذا عقلية جديدة حاربت العقلية القديمة، وانضم تحت لواء الإسلام قوم، وأبى آخرون، وتحاربوا بالبلاغة أولا ، ثم بالبلاغة والسيف ثانيا .

وظهر مظهر جديد، وهو أن الحروب الجاهلية كانت بين قبيلة وقبيلة، أو مجموعة من القبائل ومجموعة مثلها. أما الآن فأساس القتال دين ودين ، أو إسلام وكفر [2] .

إن هذه الأممية الجديدة ، شكلها رسول الله– ﷺ – بمنهج الله ووفق شريعته الحنيفية السمحاء، وقد أثمرت شخوصا روادا ، قادوا الأمة نحو الرقى والتقدم ، وخاضوا المعارك وفتحوا الفتوحات لرفعة الإسلام ونشر كلمة التوحيد ، وحققوا لشعوبهم العدل والحرية والرحمة والشورى ، وحقّ لابن رواحه قوله[3] :-

---

(١) راجع: أثر الإسلام فى الشعر (في عصر الرسول والخلفاء الراشدين) للدكتور / السيد عبدا لقادر عويضة، ص ٧٧ – ٨١، مطبعة الأمانة، نشر دار المعارف، مصر، ط أولى ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٧ م ، والنقائض فى عصر البعثة المحمدية د/ حسن أحمد الكبير ص٢٨٥ ، مطبعة الشباب الحر ومكتبتها القاهرة ط أولى ١٤٠٥هـ –١٩٨٤م

(٢) قصة الأدب فى العالم ، أحمد أمين ، وزكى نجيب محمود ٣٦٨/١ ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، ٢٠٠٢ م .

(٣) ديوان عبد الله بن رواحة ص١٥٦ .

(طويل)

فلم أر كالإسلام عزاً لأمة ∴ ولا مثل أضياف الأراشيّ معشرا[1]
نبيٌّ وصديق وفاروق أمة ∴ وخير بنى حواء فرعا وعنصرا

إنهم قادة سوف يظلون منارات تضئ للأجيال دروب حياتهم ،وينظر إليهم من جاء بعدهم نظرة الاقتداء والتأسي في كل شئ ، بحيث يصبحون بكل ملامحهم وأبعاد شخصياتهم مقاييس يحتكم إليها في معيارية الذات المسلمة عبر الحقب التاريخية المختلفة .

(١) الأراشى : نسبة إلى أراشة فى خزاعة وهو الرجل الذى ضيف رسول الله (ﷺ) وصاحبيه حين طاردهم الجوع فأكرمهم وقدم لهم رطبا وطعاما .

القسم الثانى
من روافد أدب النبوة في تشكيل الذات

أولاً : من خطب النبي ﷺ

١- أول خطبة خطبها بمكة حين دعا قومه وملامح بناء الذات[١]

حمد الله وأثنى عليه ثم قال :

إن الرائد[٢] لا يكذب أهله، والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم، ولو غررت الناس جميعاً ما غررتكم، والله الذي لا إله إلا هو إني لرسول الله إليكم خاصة، وإلى الناس كافة، والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن بما تعملون، ولتجزون بالإحسان إحساناً، وبالسوء سوءاً، وإنها لجنة أبداً أو لنار أبداً".

ملامح بناء الذات فى هذا النص النبوى:

حين أمر الله تعالى رسوله محمداً (ﷺ) بتبليغ قومه الإسلام، نادى على القبائل فاجتمع منهم نفر، فقام فيهم خطيباً يعلن أنه رسول من عند الله، وعليهم تصديقه من غير تكذيب، ضارباً لهم المثل بالرائد الذي لا يغش قومه ولا يخدعهم، لخطورة ما يترتب على الكذب والخداع والتغرير. فالرائد يصدق أهله لأن في صدقه الحياة والنماء والرغد، وإذا كذب هلك وأهلك قومه معه، وماتوا عطشا وجوعاً في غياهب الصحراء، وكذلك النبي لا يكذب، وإنما هو الصادق المصدوق، الذي إن كذب وادعى النبوة هلك ومن اتبعه.

ومن هنا يقسم (ﷺ) لهم أنه لو حدث فرضا ان كذب على الناس كلهم فإنه لا يمكن أن يكذبهم ولا يغرنهم، وأنه رسول الله لهم خاصة وإلى الناس كافة، وأخذ ﷺ يبلغهم عن الموت والحساب، والبحث والنشور، وكل مجازي ومحاسب بما اكتسبت يداه، إن خيراً فخيرا.

---

(١) جمهرة خطب العرب، محمد زكي صفوت، ١/ ١٤٧.
(٢) الرائد: الذي يرسله القوم في طلب الكلأ.

وإن شرا فشراً، ونهاية المطاف بعد وضع الموازين، وفض الجموع إما الجنة أبداً، خالدين فيها، وإما النار أبداً، هم فيها مخلدون.

ونلاحظ أن النبي ــ ﷺ ــ حريص من أول وهلة على بناء الذات الجديدة ممن سيتخذ الإسلام له دينا،والرسول يخاطب العرب وهو منهم بما يألفون، وبما توارثوه من عادات وتقاليد أسست على نظام قبلي صارم، فلا يجوز للفتى أن يحيد عن إخلاصه وصدقه مع قبيلته، ومن هنا جاءت العبارات النبوية تراعي هذا الجانب (والله لو كذبت الناس جميعاً ما كذبتكم، ولو غررت الناس جميعاً ما غررتكم) ثم ركز على عموم دعوته للإنسانية كلها، مع خصوصيتها لقومه وأبناء جلدته، وهي لفتة دالة على الذات العربية القبلية التي عني برصدها الخطاب النبوي الدعوى، وهو في الوقت ذاته حريص على زرع الأممية في نفوس المتلقين من أهله وذويه، تلك التي جاءت بلفظ العموم بعد الخصوص (الأممية بعد القبلية) (... إليكم خاصة، وإلى الناس كافة).

من جماليات التعبير في لغة الخطاب :

إن هذه الخطبة القصيرة الموجزة، قد شملت جملة من الأسس والمبادئ، التي أراد النبي (ﷺ) تبليغها إلى قومه الأقربين انطلاقاً من قول الحق سبحانه﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [1]، وتعد هذه أول مواجهة بين الحق والخير ، اللذين حملهما الرسول إليهم ، والباطل والشر الكائنين في النفوس الجاهلية.

ولذلك اعتمد النبي في موقفه على جملة من الأدوات التي تعاضد المقام ، وتلائم السياق . وأول تلك العبارات قوله :"إن الرائد لا يكذب أهله" فهو يخاطب العرب ـوهو منهم- بما اعتادوا وألفوا ، في حياتهم المعتمدة على مواطن العيش ، وهذا الرائد كانوا يختارونه

(١) الشعراء / ٢١٤ . . .

بعناية ، لخطورة ما يترتب على أنبائه التي يحملها لهم ، فجاءت عبارة النبي معدة أن يقتحم بها نفوس مخاطبيه ، يهيئهم للتصديق وقبول ما سيبلغهم به.

وهذه العبارة مثل عربي[1] توارثته الأجيال العربية والنبي أحد الذين توارثوه، واستعماله للمثل إعلان عن هوية العرق والجنس والدم، تمسك بالذات العربية في عهدها الجديد، ومن الواجب انصهار الذات العربية والذات الإسلامية في بوتقة واحدة، من أجل هداية وإنقاذ البشرية من سوء المصير.

وقد صدرت الجملة (بإن) المؤكدة وجاءت كلمة (أهله) معبرة عن أواصر الدم الحميمة بين المثل وما ضرب له وجاءت العبارات التالية بأسلوب القسم والتوكيد إلى آخر الخطبة.وكان المقسم به هو لفظ الجلالة " والله لو كذبت الناس جميعاً ما كذبتكم" وجاءت لو الشرطية تشير إلى استحالة أن يكذب عليهم أو على غيرهم ، وإذا استحال أن يكذب على الناس الآخرين ، فكيف يكذب أهله وعشيرته ؟ وإذا كان الكذب خداعاً وتغريراً، فإنه يستحيل أن يغرهم أو يغر غيرهم (ولو غررت الناس جميعاً ما غررتكم)ولأن الذين بعث فيهم رسول الله (ﷺ) قوم أشركوا مع الله آخرين، ومنهم من كفر به وعبد الأصنام والخرافات، من أجل ذلك جاء القسم يواجه من كفر ومن أشرك (والله الذي لا إله إلا هو) عبارة جميلة من حيث أداؤها ومن حيث دلالتها في ذاتها. فمن حيث أداؤها التعبيري دعوة إلى نبذ

(١) فى جمهرة الأمثال لأبى هلال العسكري : الرائد: الذي يتقدم القوم لطلب الماء والكلأ لهم، فإن كذبهم أفسد أمرهم، أمر نفسه معهم لأنه واحد منهم. يضرب مثلاً للنصيح غير المتهم على من تنصح له، وأصله في العربية من قولهم: راد برود، إذا جاء وذهب، ونظر يميناً وشمالاً، ومن ثم قيل: ارتاد الشيء، إذا طلبه؛ لأن الطالب يتردد في حاجته حتى ينالها.

الشرك والكفر، وإحلال التوحيد لله الواحد مكان كل ذلك، إنها دعوة لبداية عهد جديد لم يألفوه.وأما من حيث ذاتها فهي حقيقة أزلية، حمل لواءها الأنبياء والمرسلون، وأخذ النبي محمد يبحث عنها في تأملاته في الغار، حتى نزل عليه الوحي وأمره بالتبليغ.ولأن الرسول (ﷺ) يعلم علم اليقين التكوين النفسي والطبائع السلوكية في قومه ، فقد جاءت عبارته التي يعلن فيها رسالته ونبوته في قالب القسم والتأكيد "والله الذي لا إله إلا هو إني لرسول الله إليكم خاصة" فالعبارة المؤكدة بإن واللام المؤكدة ، هي جواب قسم.ويزاوج الرسول (ﷺ) بين القسم وأدوات المقاربة والتمثيل، في تبيانه للموت وحقيقته ، والبعث وحقيقته "والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون".

ولأنه (ﷺ) فصيح بطبعه ويخاطب أهل الفصاحة والبلاغة والبيان، حرص على إشباع ملكة التذوق والبيان، لدى المتلقين ــ وهي في جملتها من مكونات الذات العربية فطرة واكتسابا ــ ومن هنا جاءت العبارات قصيرة الفقرات، معتمدة على التراسل الصوتي (السجع) بين نهاياتها، ليحدث تلاؤماً وتلازما بين جمال العبارات في الدلالة والمضمون، وجمالها في الشكل والمنطوق.

ولم نجد من الوسائل التعبيرية نمطا يجرح مشاعر الآخر، أو يحط من قدره ومنزلته، ولكن كان التقدير كل التقدير، والاحترام كل الاحترام للآخر بوصفه إنسانا خلقه الله وسواه وعدله.

ومن هنا جاءت لغة الخطاب متزنة فيها من الوسائل التأكيدية والإقناعية ما يجعلنا نعدها نموذجا دعويا مقنعا حاول تأكيد المضامين بالقسم تارة، وبالأسلوب التصويري تارة أخرى.

٢ـ الذات المتعظة بالحياة والموت

خطب عليه الصلاة والسلام المؤمنين فقال[١]:

﴿ أيُّها الناس، إنّ لكم معالمَ فانتهُوا إلى مَعَالمكمْ، وإنّ لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم، إنّ المؤمنَ بين مخافتين: بين عاجلٍ قد مَضَى لا يدري ما اللّه صانعٌ به، وبين أجلٍ قد بَقيَ لا يدري ما اللّهُ قاض فيه، فليأخُذ العبدُ من نفسه لنفسه، ومن دُنياه لآخرته، ومن الشّبيبة قبل الكِبْرَة، ومن الحياة قبل الموت، فو الذي نَفسُ محمّد بيده، ما بَعْد الموت من مُسْتَعْتَب، ولا بَعد الدُّنيا من دارٍ، إلاّ الجنّةَ أو النار ﴾ [٢]

الشرح والتحليل:

يعد هذا النص من المصادر الإسلامية النيرة في إحداث التوازن النفسي لدى المؤمنين، وترسيخ قيم الطمأنينة والسكينة والاستقرار النفسي، بتوجيه المؤمن إلى الآخرة.

وقد بدأ النبي (ﷺ) في بنائه للذات المسلمة المؤمنة بقوله: أيها الناس ، ليشمل بنى الإنسان في كل زمان ومكان ، حتى قيام الساعة ، درءاً لمن يزعم أن الإسلام دين العرب خاصة ، دون غيرهم . ونقضاً لأباطيل المرجفين ويؤكد النبي (ﷺ) للمتلقين بأن للدين منهجاً بيناً واضحاً ، أحل الحلال وحرم الحرام ، وأجلى الفروق بين الخير والشر ، والفضيلة والرزيلة ، والنور والظلام ، وعلى

---

(١) راجع الخطبة في : البيان والتبيين للجاحظ ١/ ١٦٥ ، وأخبار أبى القاسم الزجاجى ، للزجاجى ص ٨٨ (موسوعة الشعر العربى) والأمالى ، للزجاجى ص ٢٩ ، والكامل فى اللغة والأدب للمبرد ص ٣٣٧ وجمهرة خطب العرب ١/ ١٥٢.

(٢) المفردات : معالم : جمع معلم ؛ وهو الأثر المستدل به على السبيل والطريق المقصود به هنا حدود الشريعة الإسلامية. مستعتب : اسم مفعول من استعتبه ؛ بمعنى أعطاه العتبى وهي الرضا والصفح ، أو طلب إليه العتبى.

الجميع الأخذ بهذه المعالم النيرة ، حتى يحوزوا السعادة والأمن والمحبة والسلام.

وقوله : "فانتهوا إلى معالكم " دال على وجوب الالتزام بالمنهج الإسلامي ، في التعامل مع الحياة والأحياء.ويؤثر أسلوب التأكيد إلحاحاً على إسلامية الرؤية ، وطهارة التوجهات ، وسمو التوجيهات (إن لكم معالم – إن لكم نهاية – إن العبد بين مخافتين) إلى آخره.وتأمل الصياغة والمعجم والأسلوب في قوله (ﷺ) :"أجل قد مضى لا يدري ما الله فاعل فيه ، وأجل باق لا يدري ما الله قاض فيه". حيث المغايرة في صياغة المسند، فالأول أجل قد مضى بحرف التحقيق والفعل الماضي، لأنها صياغة تلائم ما قد كان، أما ما سيكون فجاء التعبير عنه باسم الفاعل (وأجل باق) خاضع لقضاء الله وقدره، فجاء التعبير عنه باسم الفاعل مجرداً عن الزمن ، لأنه في علم الله زماناً ومكاناً وأحوالاً.وقد لاءم العمر الماضي قوله (لا يدري ما الله فاعل فيه) ولاءم العمر الغيبي قوله (لا يدري ما الله قاض به). وقد جاءت المطابقة بين (قد مضى) و (باق) تعبيرية وهذه المعالم التي حث الرسول (ﷺ) على التمسك بها ، ليست من تشريع بشر ، إنما هي تشريع الله الواحد الأحد : (إن هو إلا وحي يوحى) [1] "ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير"[2].ومن هنا كان التعبير بكلمة (العبد) تلائم السياق الذي جاءت فيه (فإن العبد بين مخافتين – فليأخذ العبد من نفسه لنفسه).وهذه الجملة الأخيرة حث على محاسبة النفس قبل يوم الحساب ، وحث على الانتصار على الذات ومقاومة المغريات ، من النفس الأمارة بالسوء . والشهوات.وقد كثر الطباق الذي يوازن بين المتناقضات (دنياه / آخرته) و (الشبيبة / الكبر)

(١) النجم /٣ .
(٢) الملك / ١٤ .

و (الحياة / الممات) فالدنيا دار تحصيل وعمل وفناء ، والآخرة دار حساب وجزاء وبقاء ، والشبيبة قوة ونشاط ، والكبر ضعف ، فيجب الأخذ من حياة القوة ، مالا يستطيع الإنسان تحصيله في كبره. ثم ينهى النبي (ﷺ) خطبته بقسم دال معبر ، "والذي نفس محمد بيده" ، فالقسم دال على أن النبي ﷺ لا يشرع من عند نفسه ، إنما هو شرع الله ومنهجه يبلغه للناس ، وأن النبي يستمد قوته ونصرته من الله القوى العزيز ، المحيي المميت ، وإذا كان خير الخلق المعصوم خاضعاً لأمر الله ، في حياته ومماته ، فما بال سائر البشر. إن القسم في ذاته عظة وعبرة وبلاغ مبين.كما أن هذا القسم دال على عظم شأن ما سيلقى على الأسماع ، (ما بعد الموت من مستعتب ، وما بعد الدنيا من دار ، إلا الجنة أو النار":

قسم وقصر يؤكدان النهاية الحتمية لبني البشر ، فريق في الجنة ، من الذين هداهم الله ، وأولئك هم أولو الألباب وفريق في السعير ، من الذين صموا آذانهم عن الخير ، وعمت بصائرهم عن النور ، أولئك حزب الشيطان ، ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون.

وبعد .. فهذه الخطبة -كما رأيت- "مع إيجازها تتميز بالقصد إلى الفكرة ، وإمتاع الناس بها ، لذا فهي تقرر وتبين ، وتصور مع التأكيد والتطيل ، الأمر الذي يؤثر في النفس ، ويملك عليها أقطارها.

كما أن فيها إيجازاً مع الوفاء بالمعنى ، وهي أيضاً تمتاز بالعذوبة والسلاسة مع قوة التعبير ، وإيحاء الألفاظ[1]".

وهذه الخطبة مثل سابقتها تتناول قضية الحياة والموت، غير أن الأولى وجهت إلى الآخر المشرك الوثني الوجودي الدهري، الذي أنكر البعث والنشور جملة وتفصيلا، وهذه الثانية موجهة للمسلمين الذين انتقلوا من الشرك والوثنية إلى الإسلام والتوحيد .

---

(١) انظر : قطوف من ثمار الأدب الإسلامي ، د/ على الخطيب ، ص١٧٩.

فالأولى لتغيير الذات في الآخر والثانية لتثبيت الذات المسلمة الجديدة، وتقوية دعائم بنائها.

ثانياً (دور الأمر والنهى في تشكيل الذات). : من الأحاديث النبوية التي أسهمت إسهاما جليلا في بناء الذات المسلمة على مبدأ تبادل التناصح بين الإمام والرعية وبين أفراد المجتمع المسلم، هذا الحديث الذي يرويه_النعمان بن بشير –رضي الله عنها– عن النبي (ﷺ) قال[1] "مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا منا الماء مروا على من فوقهم ؛ فقالوا : لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا. فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً"[2].

البعد الفكري وتشكيل الذات الجمعية المسلمة:

هذا حديث من البيان النبوي الشريف ، يدور حول الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . هذا المبدأ الذي تعتمد عليه الشريعة الإسلامية في بناء المجتمع القويم ، وإصلاح مفاسد ، ودرء مخاطره.

والحديث يتصدى للدعاوى الباطلة ، والمزاعم المفسدة ، التي يحتويها شعار "الحرية الشخصية" هذا الذي يبعد الفجوة ويزيدها اتساعاً بين الفرد والمجتمع.

---

(١) رواه البخاري رياض الصالحين ، ص٦٨.

(٢) المفردات اللغوية : مثل ومثل وشبه وشبه بمعنى واحد ، وتستخدم في الصياغة اللغوية أداة للتشبيه ، فهي أداة تفيد المشابهة والمماثلة والقائم في حدود الله : هو المنكر لها القائم في دفعها وإزالتها ، وحدود الله : نواهيه ، استهموا : اقترعوا . واستقوا : طلبوا السقيا.

... ذلك أن تلك التصرفات المشينة التي يرتكبها الفرد لا تؤذيه وحده ، إنما تؤذى معه أبناء مجتمعه الإنساني الصغير ، وهناك من الأخطار ما يعم المجتمع الإنساني في الكون بأثره . فالتبرج والابتذال ليس من الحرية الشخصية ، إنما هو وقاحة وقلة حياء ، وهو نوع من الأذى الذي يصيب أبناء المجتمع ، والتبرج والسفور آية من آيات التحلل من القيم والانحلال عن المجتمع ، ودرء المنكر هنا يكون على الآباء وأولياء الأمور من خلال الكلمة الطيبة ، والدعاة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

وهذه الموجة الضاربة لدى الشباب الماجن المستهتر ، الذي يحتضن كل جديد غربي وافد ، إنما هو الخطورة بعينها .

وليس من الحرية والعدل أن يترك المتهورون في العالم ، يعيثون في الأرض فسادا

من هنا ندرك أن دائرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دائرة واسعة ، ليست قاصرة على مكان دون آخر ، أو زمان دون سائر الأزمنة.

وندرك في الوقت ذاته أن هذا المبدأ تشابهت فيه أمة الإسلام مع رسالة الأنبياء عملاً بالنص القرآني في الحكيم ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ (١).

فأمة الإسلام مطلوب منها أن تتكامل فيما بينها ، وحين يكمل إيمان الجمهرة منها ، عملاً بهذه الفريضة ،فإن عليها انتشال الضالين المضلين ، من الأوحال والمستنقعات التي يغطون فيها إلى

(١) آل عمران / ١١٠ – ١١١.

أذقانهم. الواجب على الأمة أن تكون هادية لغيرها مهديـــة بـــذاتها ، والإنسان المسلم من كمال إيمانه حب الخير للآخرين.

ولذا فالمسلم مطالب بممارسة دوره التنويري الحـــق ، الـــذي يستمد أصول مناهجه من خلال ما شرع الله تعالى في القرآن المجيد، وفي سنة النبي المبعوث رحمة للعالمين.

ولأن المسلم يملك في السفينة (الحياة) ما يملكه الآخرون فـــإن عليه الأخذ بيد العالم -حتى لا تغرق الســـفينة بمـــن فيهـــا ، علـــى مستويات ثلاثة ، يحددها قوله (ﷺ):"من رأى منك منكـــراً فليغيـــره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضـــعف الإيمان".

وحركة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يحدها زمـــان ولا مكان ، ففيها الديمومة والعالمية معاً. فإذا ما انصاع الذين في قلوبهم مرض للتعاليم الآلهية العليا ، فإن العالم منصلح حالـــه لا محالـــة ، ولكنهم قوم يعمهون.

الأدوات التعبيرية الرامزة :

إذا تأملنا القيم الجمالية في هذا الحديث النبوي ، فإنا واجـــدوها طبائع جمالية مبهرة ، حيث هذه اللحمة الوثيقة بين اللفظ والمعنى ، كما نجد الأسلوب التصويري التمثيلي ، لوحة كلية تلخـــص لنـــا – نحن المتلقين – الصراع القائم بين الحق والباطـــل ، وبـــين الخيـــر والفضيلة ، والشر والرزيلة.

فالحديث ينتمي إلى القصص الرمزي الذي يتعـــدى المـــدلولات الظاهرة المباشرة إلى مدلولات أكثر عمقاً وأكبر كثافة، لتزداد القـــوة في الإيحاءات الشعورية، ويكون أيسر في إقناع العقول والألباب، من ذلك الصوغ التجريدي الذي يبسط الأفكار في صورها العقلية الجافة.

"فالقصص الرمزي في ذاتـــه تمثيـــل، واختصـــار للعموميـــات، والتمثيل يقرب الفكرة من العقل، كمـــا أن الاختصـــار يـــدنيها مـــن

التصور. وهو أيضاً إيحاء بالمدلول من غير تصريح، كما هو تلويح بالفكر من غير إجلاء، ومع دنو التصور وقرب التعقل يشع في النفس جوا من الإثارة العاطفية يجعلها تتمثل الفكرة، وتستريح إليها النفس، وتتعقل الصورة، وتقتنع بها[1]".

وفي العبارات الجزئية التي شكلت منها الصورة الكلية كثير من الإيحاءات:

فجملة "القائم في حدود الله" تشتمل على أكثر من دلالة وإيحاء منها علو منزلة الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر، واستمرارية خيريته من خلال التعبير باسم الفاعل المشتق من القيام والاعتدال والاستقامة (القائم) والتعبير بحرف الجر (في) دلالة على انغماسه في مهمته وإخلاصه لها، وكلمة حدود الله تعبير بالصورة الاستعارية عن أوامر الله ونواهيه، وجملة (والواقع فيها) دلالات منها الانهيار والسقوط والانغماس في الأرجاس والموبقات، وديمومة هذه الحالة ما دام صاحبها على غير هدى الله، كما أن التعبير بظرفية الحرف (في) زاد من وضوح الصورة.

وكلمة سفينة ترمز للحياة، وتوحي بالاضطراب وعدم الاستقرار، لأن السفينة قد يعرقلها الموج اللجي، وقد تهددها الرياح والعواصف والأعاصير، كذلك الحياة فيها من المذاهب الهدامة ما يمكن أن يعرقل مسيرة أحيائها، وفيها من اختلاف الأخلاق والسلوك ما يمكن أن يهدد الحياة البشرية بأكملها.

كما أن هذه السفينة (الحياة) عزيزة على ركابها بحيث أنهم يقترعون عليها، حيث تتزاحم الرغبات، وتتسابق الطموحات، ومن هنا جاء الفعل (استهموا) يبين منزلتها وقيمتها العظيمة في ظلال الإسلام.

---

(١) قطوف من ثمار الأدب الإسلامي، د/ على الخطيب صـ ١٥٤.

وفي قوله (ﷺ) (فصار بعضهم أعلاها) رمز للقائمين على المعروف، فهم أصحاب المكانة العليا، والمنزلة الرفيعة وفي قوله (وصار بعضهم أسفلها) رمز لأصحاب المنزلة الدنيا، المتهورين، المحتاجين للتأديب والتقويم والتهذيب.

والعبارتان رمز للملكية الخاصة، التي يجب أن يراعى فيها أصحابها المنفعة العامة، وحق المجتمع في أن يعيش في أمن وسلام. دون أن يعكر صفوة المتهورون. وفي قوله: "لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا "دلالة على الحجج الباطلة" والأسانيد الزائفة التي يحتضنها عادة المبطلون في دعاوى "الملكية الخاصة" والحرية الشخصية ، من غير أن يطبقوا حدود الالتزام بحرية الآخرين وحدود المصلحة العامة.

وهنا يجب على المجتمع أن يأخذ على أيديهم حتى لا يخرقوا السفينة فيهلكوا جميعا.

وهنا يجئ التعبير المحمدي : "فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا".

وهذا التعبير يحتاج لتأمل الصياغة الأدبية الرائدة (فإن تركوهم) بحيث لا يبالى الآخرون بما يفعله السفهاء ، وحيث لا ينتبهون لخطورة الموقف ، فإذا فعلوا ذلك استحقوا العقاب جميعا (هلكوا جميعا).

بينما الجملة الشرطية الثانية ذكرت ما يجب أن يكون (أخذوا على أيديهم) وهو تعبير يوحى بوجوب السيطرة على الموقف ، والحجر على تصرفات هؤلاء السفهاء . وحبسهم إذا تمادوا في سفاهتهم ، وهنا تتكرر مادة (النجاة) في جواب الشرط (نجوا ونجوا جميعا) حيث تتحقق النجاة للسفهاء وقد أرادوا – عن غير قصد – إهلاك أنفسهم وتحققت النجاة للسفينة كلها ولما تحمل فوق ظهرها.

ولعل القارئ يلاحظ كثرة أسلوب الطباق ، فهو امر يقتضيه السياق ، فهو صراع بين المعروف والمنكر ، وصراع بين الخير والشر ، بين الملكية الخاصة والمنفعة العامة ، وبين الحرية الشخصية وسلامة المجتمع ونزاهته.

ومن هنا جاء التضاد التعبيري بكثرة تلفت النظر حيث الطباق : (القائم / الواقع) و (أعلاها / أسفلها) وجاءت المقابلة (فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا وإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعا).

إنها محسنات بديعية لم تكن هدفاً في ذاتها ، إنما كانت وسيلة تعبيرية، أسهمت ضمن غيرها من الأدوات في رسم الصورة الكلية ، التي وضح النبي (ﷺ) من خلالها حاجة البشرية إلى الهداة المهديين ، من أمة الإسلام ، إنقاذاً للبشرية كلها من سوء المصير.

وهكذا يتبين لنا أن البيان النبوي الشريف مصدر رئيس في بناء الذات المسلمة ، وأن كلا من الفكر والتعبير عنه قد تضافرا في لحمة تعاضدية رائعة ، من أجل تشكيل الذات على مستويي الذاتية الفردية والذاتية الجمعية، وقد جاءت العبارات والصور ملائمة للسياقين التاريخي والأدبي للنصوص النبوية الشريفة، مما قد أدى إلى الإقناع وأحدث في المجتمع العربي والإنساني تحولا جذريا في شتى مناحي الحياة، وهو ما يمكننا التدليل علية من خلال بعض النماذج الشعرية التاريخية، التي أبدعت في عصر النبوة الهادية المهدية .

القسم الثالث
من أصداء التشكيل في الذات المسلمة الشاعرة
النموذج الأول : الصراع مع الآخر عقديا
حسان بن ثابت نموذجا
أولاً : التعريف بالشاعر ودعائم التشكيل :

هو حسان بن ثابت بن المنذر الأنصاري، يكنى أبا الوليد وأبا الحسام وهو جاهلي إسلامي متقدم الإسلام[١].

وشاعرنا ينتمي إلى بيت سؤدد ومجد تليد، فقد كان أبوه من سادة قومه، وأشراف العرب، وكان يقوم بالفصل بين المتحاربين. وإتمام الصلح بين أصحاب الثارات، وهى مهمة جليلة القدر، عظيمة الشأن لا يقوم بها إلا أصحاب الهمم.

يحكى العلامة (محمد بن سلام الجمحي) قائلاً : "وكان أبوه ثابت بن المنذر بن حرام ، من سادة قومه وأشرافهم ، وهو الحاكم بين الأوس والخزرج في يوم سميحة ، وهو يوم من أيامهم مشهور ، وكانوا حكموا في دمائهم يومئذ (مالك بن العجلان بن سالم بن عوف) ، فتعدى[٢]في مولى له قتل يومئذ ، وقال : لا آخذ فيه إلا دية الصريح[٣]، فأبوا الرضوخ لحكمه ، فحكموا (المنذر بن حرام) فحكم بإهدار دماء قومه الخزرج ، واحتمل دماء الأوس ، فذكره (حسان) في شعره حيث قوله :

وأبى في سميحة القاتل الفا ∴ صل يوم التقت عليه الخصوم[٤]

---

(١) الشعر والشعراء ، صـ ١٨٨.
(٢) تعدى فى حكمه : جاوز الحق ، وجار واشتط.
(٣) الصريح : الخالص النسب من أنفسهم.
(٤) طبقات فحول الشعراء ٢١٦/١ شرح وقراءة ، محمود شاكر ، دار المدنى بجدة.

ولد حسان في يثرب نحو عام (٦٠ ق.هـ - ٥٦٣م) ونشأ شاعراً يتكسب بالشعر وينتقل بين بلاط جلق ، وبلاط الحيرة ، حيث المناذرة والغساسنة ، وكان إلى الغساسنة أميل ، وقد مدح من آل جفنة الغساسنة أولاد الحارث الأعرج (توفي ٥٣ ق.هـ = ٥٦٩ م) وأحفاده ، واستمر الغساسنة في بر حسان ووصله بالجوائز حتى بعد أن دخل في الإسلام وأضرب عن مدحهم[١]. ومن مدائحه فيهم قوله[٢]:

أولاد جفنة حول قبر أبيهم ∴ قبر ابن مارية الكريم المفضل
يسقون من ورد البريص عليهم ∴ بردى يصفق بالرحيق السلسل[٣]
يغشون حتى ما تهرّ كلابهم ∴ لا يسألون عن السواد المقبل[٤]

يركز الشاعر هنا على معلم الكرم في الشخصية التي طالما تغنى به شعراء العربية قبل الإسلام، وظلت هذه القيمة الإيجابية تتوارثها الذات العربية المسلمة وتعلى من شأن التحلي بها بين الأمم والشعوب.

وقد جعله محمد بن سلام الجمحي[٥] رائد طبقة شعراء القرى. وأبرزها طبقة شعراء المدينة وهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة ، وقيس بن الخطيم ، وأبو قيس بن الأسلت.

أشعرهم حسان بن ثابت ، وهو كثير الشعر جيد ، وقد حمل عليه ما لم يحمل على أحد ، لما تعاهضت (تناهشت) قريش ، واستتبت وضعوا عليه أشعاراً كثيرة لا تنقى".

---

(١) تاريخ الأدب العربي ، د/ عمر فروخ ، صـ ١/ ٣٢٥.
(٢) الشعر والشعراء صـ ١٨٨.
(٣) البريص: نهر بدمشق، وبردى: ماء نهر بردى،الرحيق: الخمر، السلسل: العذب المستساغ.
(٤) تهر :تنبح ، والعبارة كناية عن كثرة الوافدين الزائرين ، السواد : الجمع من الناس.
(٥) طبقات فحول الشعراء ، ١/٢١٥.

ويهاجر رسول الله (ﷺ) إلى المدينة،فيدخل حسان في الإسلام، ويحسن إسلامه وتعاد ذاته تتشكل من جديد، بناء على معطيات جديدة وقيم وليدة وتوجيهات فريدة، حتى إذا أخذ شعراء قريش (الآخر المعاند للنور) في هجاء الرسول وصحبه من المسلمين انبرى لهم بصائب هجائه، وكان رسول الله يحثه على ذلك بمثل قوله: "اللهم أيده بروح القدس"، واستمع إلى بعض هجائه فقال: "لهذا أشد عليهم من وقع النبل"... ولم يكن يهجو قريشا بالكفر وعبادة الأوثان، إنما كان يهجوهم بالأيام التي هزموا فيها، ويعيرهم بالمثالب والأنساب[1].

بيد أنى : أود التوقف عند تهمة من شأنها الإساءة إلى الذات المسلمة في شخصية حسان، هذه التهمة الصقت به ـ رضى الله عنه ـ ألا وهى صفة الجبن.

فقد قال ابن قتيبة عنه : إنه لم يشهد مع النبي (ﷺ) مشهدا لأنه كان جباناً[2]" وتبعه عدد من النقاد في عصرنا الحاضر. منهم الدكتور/ محمد أحمد سلامة حيث يقول : "وكان حسان في غاية الجبن ، فكان يجلس في الحصن مع النساء والصبيان ، وكان يدق وتداً في الحصن يحمل عليه إذا حمل الرسول على العدو ، ويرجع عنه إذا رجع الرسول[3]".

وكذلك الدكتور/ عمر فروخ في قوله : "غير أنه لم يشهد الغزوات مع الرسول لأنه كان جباناً[4]".

---

(١) انظر : العصر الإسلامي ، د/ شوقى ضيف ، صـ ٧٧ - ٧٨ وانظر الأدب الإسلامي فى عصره الأول ، د/ صلاح الدين عبدالتواب صـ ٢٠٤ دار الطباعة المحمدية ، القاهرة ط أولى ١٤٠٢ هـ - ١٩٨١ م.

(٢) الشعر والشعراء صـ ١٨٨.

(٣) الشعر فى رحاب الدعوة الإسلامية ، صـ ٢٩٥.

(٤) تاريخ الأدب العربى ١/٣٢٥.

والدكتور/ على أحمد الخطيب في قوله عن حسان : "إلا أنه لم يشهد مع النبي (ﷺ) مشهداً لأنه كان جبانا ، وعلى أنه كان مشهوراً بجبنه ، فلم يناصر الدين بسيفه ، وإنما نصره بلسانه[١]".

والحق أن الرجل لم يكن في حقيقته وفي تكوينه النفسي والخلقي جبانا، إنما كان من المصابين بعاهة في يده، منعته عن حمل السلاح، فقد "كان أكحل حسان (عرق في اليد) قد قطع، فلم يكن يضرب بيده[٢]".

ونحن مع الدكتور/ الصادق حبيب في قوله : "ولذا لم ينكر عليه الرسول أو الصحابة قعوده وتخلفه عن القتال ، وما كان رسول الله يعذر متخلفاً قادراً ، فقد أنكر على كعب بن مالك تخلفه عن غزوة تبوك ، ودعا أصحابه إلى مقاطعته هو ومن تخلفا معه ، واستمرت المقاطعة خمسين يوماً ، حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم ، ثم تاب الله عليهم[٣]" ولم يثبت أن عيره أحد بصفة الجبن ، وظل يدافع عن الإسلام خير دفاع ، وعاش حتى توفي سنة ٥٤ للهجرة.

(١) قطوف من ثمار الأدب الإسلامي ، صـ ٢٤.
(٢) الأغانى ١٦/٤.
(٣) من أريج الأدب العربى فى عصرى صدر الإسلام وبنى أمية صـ ٧.

ثانياً : النص[1]

١ـ عَرَفتَ ديارَ زَينَبَ بالكَثيبِ ∴ كَخَطِّ الوَحيِ في الرَقِّ القَشيبِ[2]
٢ـ تَعاوَرُها الرِياحُ وَكُلُّ جَونٍ ∴ مِنَ الوَسمِيِّ مُنهَمِرٍ سَكوبِ[3]
٣ـ فَأَمسى رَسمُها خَلَقاً وَأَمسَت ∴ يَباباً بَعدَ ساكِنِها الحَبيبِ[4]
٤ـ فَدَع عَنكَ التَذَكُّرَ كُلَّ يَومٍ ∴ وَرَدَّ حَرارَةَ الصَدرِ الكَئيبِ[5]
٥ـ وَخَبِّر بِالَّذي لا عَيبَ فيهِ ∴ بِصِدقٍ غَيرِ إِخبارِ الكَذوبِ[6]
٦ـ بِما صَنَعَ المَليكُ غَداةَ بَدرٍ ∴ لَنا في المُشرِكينَ مِنَ النَصيبِ[7]

---

(١) النص فى ديوان حسان ٨٢/١ ، تحقيق د/ وليد عرفات ، دار صادر بيروت ، ١٩٧٤م .
(٢) الكثيب من الرمل : ما اجتمع واحْدَوْدَبَ ، والجمع : أكثبه ، وكثب ، وكثبان. وهى تلال الرمل ، قال تعالى : "وكانت الجبال كثيباً مهيلا" ، والكثيب فى البيت "موضع" ، والخط ؛ الطريق ، وما يكتب بالقلم ، والخط الذى يخطه الحازى ، وهو نوع من الكهانة، والرق : الشئ الرقيق ، ويقال للأرض اللينة : رق ، والقشيب الجديد ، أوالخلق القديم ، وهى من ألفاظ الأضداد التي يوضحها السياق
(٣) تعاورها الرياح : تواظب وتعاون عليها ، تتلقفها ريح بعد ريح ، الجون : يأتى بمعان مختلفة ، فهو الأسود المشرب حمرة ، وهو الأسود وهو الأبيض ، لأنه من الأضداد ، وجمع (جَوْنٌ) (جُونٌ) الوسمى:مطر أول الربيع،منهمر:اسم فاعل من الفعل انهمر ، انصب من همر الماء يهمره همرا إذا صبه ، وماء سكوب : يجر على وجهه الأرض من غير حفر
(٤) الرسم : الأثر ، خلق : قديم ، يباب : خراب ، واليباب : الذى ليس فيه أحد.
(٥) الكآبة : سوء الحال والانكسار من الحزن ، من كئب يكأب كأبا ، وكأبه ، وكآبة.
(٦) الكذوب : صيغة مبالغة من كذب .
(٧) الغداة والغدوة : البكرة ما بين صلاة الغداة وطلوع الشمس والنصيب : الحظ من كل شئ.

٧ـ غَداةَ كَأَنَّ جَمعَهُمْ حِـراءٌ ∴ بَدَت أَركانُـهُ جُـنحَ الغُـروب[١]
٨ـ فَلاقَينـاهُمُ منّـا بِجَمـعٍ ∴ كَأُسدِ الغابِ مِن مُـردٍ وَشـيب[٢]
٩ـ أَمـامَ مُحَمَّـدٍ قَـد آزَروهُ ∴ عَلى الأَعداءِ في رَهجِ الحُروب[٣]
١٠ـ بِأَيديهِم صَوارِمُ مُرهَفاتٌ ∴ وَكُلٌّ مُجَرَّبٍ خـاظي الكُعـوب[٤]
١١ـ بَنو الأَوسِ الغَطارِفِ آزَرَتهـا ∴ بَنو النَجّارِ في الدينِ الصَـليب[٥]
١٢ـ فَغادَرنا أَبا جَهلٍ صَـريعاً ∴ وَعُتبَةَ قَـد تَرَكنـا بِـالجَبوب[٦]
١٣ـ وَشَيبَةَ قَد تَرَكنا في رِجالٍ ∴ ذَوي حَسَبٍ إِذا اِنتَسَبوا حَسيب[٧]
١٤ـ يُنادِيهِم رَسولُ اللَهِ لَمّـا ∴ قَذَفناهُم كَباكِـبَ فـي القَليـب[٨]
١٥ـ أَلَم تَجِدوا حَديثٌ كانَ حَقّاً ∴ وَأَمـرُ اللَـهِ يَأخُـذُ بِـالقُلوب
١٦ـ فَما نَطَقوا وَلَو نَطَقوا لَقالوا ∴ صَدَقتَ وَكُنـتَ ذا رَأيٍ مُصـيب

---

(١) غداة هنا بمعنى يوم كذا ، جنح – بكسر الجيم وضمها : ناحية أى ناحية الغروب .

(٢) مرد : جمع أمرد ، وهو الشاب الذى بلغ خروج لحيته وطر شاربه ولم تنبت لحيته ، وشيب : جمع أشيب والمراد الشباب والشيوخ.

(٣) آزر وأزره : أعانه وأسعده ، من الأزر : القوة والشدة ، قال تعالى : "فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه" ، وأصل الفعل آزر (أأزر) بهمزتين ، فقلبت الثانية ألفا للتسهيل . والرَّهَجُ ، والرَّهْجُ: الغبار.

(٤) صوارم : جمع صارم وهو السيف القاطع والسيوف المرهفات : التي رقق حواشيها ، وسن حداها. خاظى : اسم فاعل من خظا : المكتنز اللحم من خظا يخظو خظوا ، أو من خظى خظا.

(٥) الغطارف : جمع غطريف ، وهو السيد الشريف السخي الكثير الخير . والدين الصليب: الشديد من صلب صلابة فهو صليب وصلب.

(٦) أبو جهل : هو عمرو بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم. وعتبة : يريد عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف. والجبوب في الأصل : الأرض الغليظة الصلبة ، وهى فى البيت موضع ببدر.

(٧) شيبة : هو ابن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف

(٨) كباكب : جماعات ، واحدة كبكبة ، وكبكبت الشيء : إذا ألقيت بعضه على بعض. القليب : البئر القديمة ، التي لا يعلم صاحبها ولا من حفرها ، وتكون بالبراري . وجمعها قلب.

ثالثاً : تحليل معالم الذات المسلمة

بتأمل هذه القصيدة ندرك أنها تكونت من الأفكار التالية:

١- مقدمة (١ - ٣)

٢- انتصار الذات المسلمة الموحدة على الآخر المشرك (٤ - ١١)

٣- تعداد قتلى الآخر المشرك من صناديد قريش (١٢ - ١٣)

٤- نداء النبي (ﷺ) للقتلى إنذار وتبشير (١٤ - ١٦)

وإليك بيان كل فكرة بالشرح والتفصيل.

١ـ المقدمة :

بدأ حسان بن ثابت رضى الله عنه الحديث عن الماضي ، حيث يتذكر محبوبته (زينب) ، في ذلك المكان ذي الكثبان الرملية ، وآثار منزلها التي لم يبق منها إلا خطوط تكاد تمحى ، بفعل الرياح التي تتوالى عليها ، كما يأخذ مطر (الوسمي) الذي يسقط في أوائل الربيع، في محو البقية الباقية من الآثار والديار، وقد أصبح الأثر خاليا خربا ، بعد أن كان آهلاً عامراً بالأحبة.

٢ـ انتصار الذات المسلمة الموحدة على الآخر المشرك:

ربط الشاعر بين المقدمة وبين غرضه بقوله "قدع عنك التذكر كل يوم" ، مطالباً بفعل ما يطفئ النار المشتعلة في القلوب ، ولن يخمد نارها غير الأخبار السعيدة ، التي تجمع بين صدق الأخبار ، وصدق المخبر. وهى أن الله العلى القدير قد آزر العصبة المؤمنة في حربها ضد العصبة المشركة ، لأن المعتدين أغرتهم كثرة العدد والعدة ، وقد تسلح المدافعون من المسلمين بقوة العقيدة ، حتى بدوا كأسد شجاعة لا تهاب الموت، وتتفانى في الجهاد إعلاءً لكلمة الله، وكانت تلكم القوة الإيمانية موزعة بين كل الجموع المسلمة، لا فرق بين صغير أو كبير ، شاب يافع أو شيخ عجوز.

وقد كانت هذه الجموع ترمى بنفسها أمام النبي القائد (ﷺ). تذود عنه وعن الدين الذي بعث به ، يشطون أوار المعارك ،

ويثيرون الغبار من شدة تحركهم واندفاعهم القوي ، حاملين السيوف القاطعة، التي سُنَّ حداها ، واعدت إعداداً جيداً.

ويأخذ الشاعر في تبيان المجاهدين ، فهم من الأوس الأسياد الشجعان الأقوياء ، عاضدهم بنو النجار ، وكل يدافع عن عقيدة التوحيد ، وعن الدين الإسلامي الحنيف.

٣ـ تعداد قتلى الآخر المشرك من صناديد قريش:

وهذه الفكرة من بيتين اثنين ، بمنزلة خبر قصير ، ينتقل على الألسنة بين قبائل العرب ، حتى يكون رادعاً لمن تسول له نفسه الاعتداء على الإسلام والمسلمين. وبخاصة أن القتلى الذين ركز عليهم هنا من زعماء القوم ، وممن كانت لهم شهرتهم في الجزيرة العربية وهم أبو جهل (عمر بن هشام) وعتبة ابن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة.

٤ـ نداء النبي ﷺ للقتلى إنذارا وتبشيرا :

ويصر حسان على ذكر مشهد الختام في هذه القصيدة الراصدة للنصر التاريخي وبعض معالمه ، حيث كان رسول الله (ﷺ) أمر أن يطرح قتلى المشركين ببدر في قليب (بئر قديمة) فلما طرحوا فيها . جاء عليه السلام ، حتى وقف عليهم فناداهم فقال : "هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا ، فأما أنا فقد وجدت ما وعدنى ربى حقا ، فقيل له : يا رسول الله ، أتنادى قوماً قد جيفوا ؟ فقال : ما أنتم بأسمع منهم ولكن لا يجيبون. [١] .

(١) أنظر سيرة ابن هشام ٢/٢٠٤.

رابعاً : الذات المسلمة والآخر (فكرا وفنا)

يمثل هذه النص لونا من ألوان الصراع الفكري بين الذات والآخر الحق والباطل ، بين التوحيد والإيمان ، والشرك والكفران. والنص – ضمن غيره – أداة إعلامية ، يرصد ويذيع في الناس موقفاً للبطولة الإسلامية في معركة بدر الكبرى ، حين نصر الله المؤمنين وهم قلة ، على المشركين وهم كثرة. وصحيح أن القرآن الكريم وضح كثيراً من معالم هذه الغزوة ، وكشف عن دواخل النفوس البشرية المتحاربة ، من صلف وغرور عند المشركين ، وخوف عند المسلمين ، بسبب الكثرة لدى المشركين. حيث قول الله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ (١)، ﴿ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (٢).

وغير ذلك من الآيات البينات التي تناولت غزوة بدر الكبرى.

غير أن المشركين قد صموا آذانهم عن القرآن ،وشككوا في مصداقيته وزعموا أن النبي محمدا (ﷺ) جاء به من عند نفسه، فكان لا بد من وسيلة إضافية، تؤازر القرآن في حواره العقدي مع الآخر،وتستمد هذه الوسيلة من القرآن ما يسعفها في فضح المعاندين، رؤية وسلوكا ونفسا ما تقرع به مشاعرهم ، ويهز وجدانهم هزا ، ولم يكن غير الشعر ديوان العرب ، يجابهون الآخر من خلاله ، ويكون الوسيلة الإعلامية ، التي تنفذ من خلالها أصول الحرب النفسية ، وكان هذا النص الذي بين أيدينا ، من أوائل

(١) الأنفال ٧-٨.
(٢) الأنفال ٦٦.

النصوص الشعرية ، التي حملت على عاتقها أداء هذا الدور ، بالرصد والتسجيل التاريخي ، ثم إذاعة هذه القطعة الفنية بين أرجاء العرب ومن تكاتف معهم في عنادهم وصلفهم، حتى يقع الرعب في القلوب الكافرة المعاندة ، ولتثبت المؤمنين ، في وجه التيار المشرك العنيد.

ومن هنا استعان (حسان بن ثابت) في تشكيل رؤيته الشعرية ببعض الوسائل التعبيرية ، فيما يتصل باللفظ والأسلوب والصياغة والتصوير والموسيقى كما يلي :

أ ـ اللفظ والأسلوب والصياغة :

بداية أود الإشارة إلى أن الألفاظ والعبارات جاءت موافقة للمقاييس اللغوية والنحوية والبلاغية فصيحة لا عجمة فيها . واضحة لا غرابة تعترى مدلولها ، سليمة من الخطأ في الصياغة . أو التعقيد في الأسلوب وجاءت ألفاظه متسمة بالدقة والانتقاء ، بما يوافق السياق الفني ، والعاطفة الدينية المسيطرة على الشاعر في نصه.

فهو – مثلا – يستخدم الصيغة المضعفة للفعل في قوله (وخبره) ولم يقل أخبر ، لأن التضعيف في المبنى ، تكثير وتكثيف للمعنى ، فهو يريد للأخبار أن تنتشر بين جموع المتلقين. ومن أسماء الله الحسنى لفظ (المليك) لأن السياق التاريخي يلائمه هذا الاسم ، فالملائكة التي شاركت في القتال هم جنود الله المليك ، والرعب الذي قذف في قلوب المشركين إنما قذفه الله المليك ، والمنصورون هم عباد الله المليك ، والمنهزمون يعبدون اللات والعزى ومناة وهبل ، فلا يستويان مثلا.

وتأمل قوله : "لما قذفناهم" بما تحمل من حنق الشاعر وكرهه لهؤلاء القتلى المشركين ، فهم بعد أن كانوا صناديد مفاريد في

قومهم ، ها هم أولاء الآن يقذفون في البئر قذف الحجارة وسائر الجمادات.

كما أن استعماله للفعل (آزر) بمادته وصيغته يكشف عن روح التضحية والفداء ، والترابط والتلاحم والأخوة في الذات المسلمة على وجه العموم ، بين الأنصار- بعضهم بعضا- من جهة ، وبينهم وبين المهاجرين من جهة أخرى.

ومن العناصر الأسلوبية التي استعان بها حسان في رؤيته المناصرة للدعوة والداعية أسلوب الطباق في قوله : "وأمست يبابا بعد ساكنها الحبيب" حيث بين (يباب/ساكن) الخراب والعمران ، يوضح به المفارقه بين ماضى ذلك الطلل وحاضره.

والطباق أيضاً في قوله : (بصدق غير إخبار الكذوب) يفرق به بين الادعاءات والمزاعم الكاذبة ، التي يتقول بها فريق المشركين ، ويقين وصدق الحقائق التي يسوقها اللسان المؤمن الموحد.

ومنها الطباق الأدائى في قوله :

فلاقيناهم منا بجمع .:. كأسد الغاب من مرد وشيب

حيث طابق بين (مرد / شيب) ليفيد به شمول الشجاعة والإقدام لكل المجاهدين المسلمين ، صغيرهم وكبيرهم.

ومن الأساليب الأدائية ذلك الحوار بين الشاعر ونفسه ، وهو ما يعرف "بالتجريد" حيث جرد من نفسه إنساناً وأجرى معه حواراً ، وذلك في مقدمة قصيدته التي بدا فيها صوت الشاعر من أول دفعه ، يستعمل فيها ضمير الخطاب للمفرد "عرفتَ ديار زينب بالكثيب" "قدع عنك التذكر ..." و "رد حرارة الصدر الكئيب".

كما نلاحظ سيطرة الأسلوب الخبرى في النص ، والسبب في ذلك أن الشاعر يتفاعل - فكراً وفناً - مع حقائق تاريخية ، عنى فيها بالرصد والتسجيل للأحداث المؤلمة التي ألمت بالمشركين في أوليات المعارك بينهما.

ب ـ التصوير الفني :

من الأدوات الفنية التي وظفها حسان الصورة الشعرية ، وإن كانت هنا بسيطة قريبة التناول ، سريعة الفهم ، واضحة الدلالة ، يفسر بها بعض المعطيات ، ويوضح بها بعض الحقائق والأحداث.

منها الصورة التشبيهية الموروثة عن البيئة العربية في عاداتها وتقاليدها ، حيث قوله "كحظ الوحى في الرق القشيب" ، فقد استوحى مفردات الصورة من بيئة العرافين ، حيث كان "البازى" يخط خطوطاً سريعة متلاحقة على الأرض ، ثم يمسحها ، فإذا بقى خطان ، كان التفاؤل، وإن بقى خط واحد ، كان التشاؤم. واللفظة المستوحاة هى صورة الخط المرسوم على أرض رطبة رقيقة ، يصور بها آثار محبوبته الظاعنة (زينب) فهى صورة توضح الأثر وترسم له شكلاً على خارطة (الكثيب).

ثم إن البيت الثاني ضمن أجزاء اللوحة الفنية ، إذ إن الرياح والأمطار قد أسهمت في إخفاء ملامح ذلك الأثر.

ومن الصور الشعرية قوله : "ورد حرارة الصدر الكئيب" حيث جعل المعاني المجردة المدركة بالعقل ، محسوسة ، كما لو كان الكرب والضيق ناراً تتأجج داخل الصدور.

ومن الصور التشبيهية التمثيلية قوله :

غداة كأن جمعهم حراء ∴ بدت أركانه جنح الغروب

مستعملاً فيها أقوى أدوات التشبيه (كأن) ليقرب الصورة البصرية من العيون والأنظار.

وهذه الصورة يكشف بها عن حقيقة الجيوش المشركة في كثرة عددها ، وفي هيئتها الكلية ، إذ بدا الجيش كما لو كان جبل حراء وقد التقت مرتفعاته بأشعة الشمس وقت غروبها ، وهى صورة توضح ضمنا مدى التوفيق والمؤازرة الإلهية ، لجيش المسلمين ، في الأوقات العصيبة ، في مواجهة جيش كثيرة العدد والعدة.

ومن صوره التشبيهية أيضاً قوله : ...

فلاقيناهم منا بجمع ∴ كأسد الغاب ، من مرد وشيب

وهى صورة تبين الشجاعة والإقدام ، في أفراد المسلمين ، من الشباب والشيوخ على حد سواء.

كما استعان في رؤيته بالصور الكنائية ، عن طريق معنى المعنى ، وهى إثبات لمعنى يعرف عن طريق المعقول دون طريق اللفظ[1] ومن الكناية قوله "أمام محمد" كناية عن التضحية والفداء ، والشجاعة والإقدام في المجاهدين.

وقوله "رهج الحروب" كناية عن اشتداد اللقاء ، واحتدام المعركة.

وقوله : "بأيديهم صوارم مرهفات ... إلخ كناية عن الفروسية والبطولة.

وفي قوله : "قذفناهم كباكب" كناية عن الذلة والصغار والهوان ، الذي حل بالمشركين.

جـ الموسيقى:

تعد الموسيقى الداخلية أبرز الألوان الموسيقية الأدائية في هذا النص، إذ تآزرت الموسيقى الداخلية مع العاطفة الشعرية ، والسياق الفني.

وإذا تأملت الطبائع الصوتية لأصوات المقدمة مثلاً فستجد صوت السين قد كثر كثرة عكست لنا أصوات الرياح ، في الأماكن المهجورة الخربة.

فأمسى رسمها خلقاً وأمست ∴ يباباً بعد ساكنها الحبيب

---

(١) دلائل الإعجاز ، للإمام عبد القاهر الجرجانى ، صـ ٢٧٣ تحقيق وشرح السيد محمد رشيد رضا ، ط سادسة مكتبة ومطبعة محمد على صبح ١٣٨٠ هـ - ١٩٦٠ م.

وحين يتحدث عن المعارك بما فيها من حركة واضطراب وصخب وجلجلة ، فإن الأصوات تلتحم فيما بينها مع الصور والأساليب ، في تكوين اللوحة الشعرية.

اقرأ له مثلا :

أمام محمد قد آزروه ∴ على الأعداء في رهج الحروب
بأيديهم صوارم مرهفات ∴ وكل مجرب خاظى الكعوب
بنو الأوس الغطارف آزرتها ∴ بنو النجار في الدين الصليب

فأنت بقراءتك لهذه الأبيات تلاحظ الشدة والجزالة والفخامة ، تنعكس على نطقك لها ، وتسمع أصواتا شديدة انفجارية استعلائية مفخمة ، تتلاءم وصخب الحرب.

وهذا اللون من الموسيقى - فيما أرى - آية من آيات الصدق الفني، حين تبدو عاطفة الشاعر ، وأحاسيسه الداخلية من خلال الأصوات التي يكون بها تجربته ، ويبلور بها عاطفته.

وهو مظهر من مظاهر الترابط الفني في القصيدة كما سنوضحه فيما يلي :

البناء والترابط الفني/ حضور العقل ووضوح الهدف

من حيث الوزن العروضى ، فقد وضح الشاعر معانيه وأفكاره في قالب بحر (الوافر) التام

مفاعلتن مفاعلتن فعولن ∴ مفاعلتن مفاعلتن فعولن

مقطوع العروض والضرب حيث حذف السبب الخفيف ، وأسكن ما قبله ، لتصير مفاعلتن //د///ه إلى مفاعل //ه/د ، وتحول إلى فعولن.

وهو بحر قديم استوعب كثيرا من الموضوعات الشعرية المختلفة.

وروى القصيدة (الباء) المكسورة ، المردوفة بياء أو واو. ولم يحد الشاعر عن هذا الردف ، وإلا يعد مخالفاً لمقاييس النقاد وشروط النقد في الروى وما يتصل به من حروف ، قبله أو بعده، وهو بهذا

المسلك الفني ـــ ضمن غيره من الشعراء ـــ يحترم الذوق العام الذي أجمع عليه كل العرب ، من مسلمين وغير مسلمين.

وقد أسس الشاعر قصيده على مقدمة وموضوع وخاتمة.

فأما المقدمة فهي – كالأسلاف – تبدأ ببكاء الأطلال وشاعرنا من المخضرمين ، لذا حرص في معظم قصائده على المقدمة ، يمهد بها أذهان المتلقين ، لما سيلقى عليهم ، وبخاصة إذا كان شاعراً ذا قضية وهدف ، يخلص لهما ، ويعمل جاهداً من أجلهما.

وقد كانت المقدمة ذات صلة بالموضوع ، إذ جاءت معانيها تتناول الخراب والدمار والهلاك والإهلاك والفناء. والشاعر سوف يتحدث عن هذه المعاني التي حلت بالجموع المشركة ، من قتل ودماء وموت وهلاك. ومن هنا نقول : إنه قد وفق فنيا في مقدمته لأنها جاءت مترابطة مع سائر أجزاء القصيدة وإن كان قوله : " فدع عنك التذكر كل يوم ..." قد أوهى الآصرة ، بين المقدمة والغرض من القصيدة.

وأول الترابط الفني ومظاهره في سائر الأجزاء فهو واضح على أكثر من مستوى، فكريا ، وصياغيا بنويا ، وعضويا تعبيريا.

وآية الترابط الفكري ذلك التسلسل في ذكر الأحداث في وشيج سردى. حيث بدت القصيدة كما لو كانت قصة شعرية قصيرة فيها الحكي والسرد والمشهدية والحوار ، وفيها الأشخاص والأماكن والأزمنة. وهذا اللون القصصي بطبيعته يفرض لوناً من الترابط بين الفكرة والتي تليها ، وبين المشهد والذي يليه.

فالمكان (بدر) يوم التقى الجمعان ، المشركون بكثرتهم ، والموحدون بقلتهم ، ثم المشهد التالي يسلط الأضواء على المقاتلين البواسل من الأوس وبنى النجار، مع تبيان لمعاني التضحية والفداء، والبسالة والشجاعة.

ومشهد ثالث تسلط فيه العدسات الشعرية على قتلى المشركين في بدر (أبى جهل ، وعتبة ، وشيبة) مع تبيان حالتهم التي قتلوا عليها ، ومصيرهم المفجع.

ثم مشهد رابع تسلط فيه الأضواء على الخطاب المحمدي لقتلى المشركين ، والغاية من ذكر هذا المشهد الختامي ، تنفير الأعداء ، وتبشير الأخلاء .

وجاء ختام القصيدة تعليقا على الحوار الذي جرى على لسان النبي (ﷺ) :

ألم تجدوا حديثي كان حقا ∴ وأمر الله يأخذ بالقلوب

وهنا يجئ تعليق (الشاعر / الراوي) :

فما نطقوا ولو نطقوا لقالوا : ∴ صدقتَ وكنت ذا رأى مصيب

ليسدل الستار على مشهد ينطق بصدق الرسالة والرسول ، ويعلى من مكانه الصحابة الموحدين الذين آووا ونصروا بعد إيمانهم، وفي الوقت نفسه يدنى من منزلة المشركين المعاندين الذين كذبوا وأنكروا ، وعاندوا ، وأصروا على شركهم ، وعبادة الأوثان.

وآية الترابط الصياغي البنيوي ، يتمثل في التراكيب النحوية ، وعلاقة الجملة بالأخرى من حيث متعلقات الأفعال ، وحروف العطف. ومقتضيات الفصل والوصل ، بين الجمل وبعضها ولنحاول تعقب هذه المظاهر الترابطية من بداية مقدمة القصيدة كما يلى :

اشتمل البيت الثاني على كلمة (تعاورها) فيها ضمير يعود على (ديار زينب) في البيت الأول ، كما عطف البيت الثالث على الثاني بالفاء (فأمسى) وفيه كلمات بها ضمائر تعود على ديار زينب وهى : رسمها – وأمست – ساكنها.

والبيت الرابع رابط بين المقدمة والغرض.

والبيت الخامس معطوف على الرابع (وخبر بالذي).

والسادس توضيح لاسم الموصول (الذي) :

بما صنع المليك غداة بدر .....

والبيت السابع (غداة كأن جمعهم جراد .....) توضيح للمشركين وهيئتهم في البيت السادس.

والثامن معطوف على السابع بالفاء (فلاقيناهم).

والبيت التاسع (أمام محمد) ظرف مكان لجملة (فلاقيناهم منا بجمع).

والمناداة في بيت وجملة النداء في الذي يليه :

يناديهم رسول الله..... ∴ ....

ألم تجدوا حديثي كان حقا ∴ ....

والبيت الأخير تعقيب للحوار :

فما نطقوا ولو نطقوا لقالوا ∴ صدقت وكنت ذا رأى مصيب

وآية الترابط العضوي هو التلاحم بين الأدوات التعبيرية (اللفظ والأسلوب والصياغة والتصوير والموسيقى) مع المعنى والسياق الفني والتاريخي.

وقد مر كيف التحمت الموسيقى الداخلية مع عاطفة الشاعر ومع الموضوع ، ونضيف هنا أن مجيء الألفاظ على رتب المعاني هو لون من الترابط العضوي ، وملاءمة الأساليب الخبرية للحقائق التاريخية ، هو لون من الترابط العضوي ، وملاءمة الأسلوب الإنشائي للحوار الداخلي (في مقدمة القصيدة) فدع عنك التذكر – وخبر بالذي لا عيب فيه – هو لون من الترابط العضوي.

ثم إن مجيء المحسنات البديعية لم تكن لذاتها ، وإنما لها وظيفتها في النص وبخاصة (الطباق) ، وكذلك الصور الشعرية التي ارتبطت بالبيئة ، وبالموضوع ، وبالعاطفة ، كل ذلك لون من الترابط العضوي. لأن الشاعر صاحب قضية ، فجاءت وسائله التعبيرية وسيلة لغاية عظمى ، ولم يكن همه المبارزة الشعرية إذ أن المقام لا يقتضى ذلك.

وهو وإن كانت عاطفته صادقة ، وبدا صدقها من خلال أدواته الفنية، إلا أنها لم تكن بقوة عاطفته في نماذج شعرية أخرى ، وبخاصة تلك النقائض الشعرية التي خاضها ضد آخرين ، من الشعراء المشركين.

وكان حبه للإسلام والمسلمين ، وكرهه للشرك والمشركين هو لون العاطفة المسيطر على النص.

وأنت واجد من خلال صياغته وأدواته حبه لعقيدته حباً جعله ينسى نفسه ، فلم يستعمل ضمير المتكلم ولو مرة واحدة ، واستعمل ضمير المتكلم ، الدال على جماعة المؤمنين مثل : (لنا في المشركين – فلاقيناهم منا بجمع – فغادرنا أبا جهل صريعاً – وعتبة قد تركنا بالجيوب – وشيبة قد تركنا – قذفناهم كباكب في القليب).

ذلك أنه توحد قلبا وقالباً مع الجموع الموحدة ، يعبر بوصفه فرداً منهم عن الأفراح والأتراح ، وعن الآمال والطموحات.

وأنت واجد حنقة وكرهه للآخر المشرك ماثلاً في معجمه وعباراته الدالة عليهم مثل : (بما صنع المليك ... لنا في المشركين – على الأعداء في رهج الحروب – قذفناهم كباكب في القليب).

النموذج الثاني
(التحول من الذات القبلية إلى الأممية)
عباس بن مرادس[1] نموذجا
أولا : النص[2]

- ١ -

تَقَطَّعَ باقي وَصلِ أُمِّ مُؤَمَّـلِ ∴ بِعاقِبَةٍ وَاستَبدَلَت نِيَّـةً خُلفـا[3]
وَقد حَلَفَت بِاللهِ لا تَقطَعُ القُوى ∴ ما صدقَت فيهِ وَلا بَـرَّت الحَنفـا[4]
خُفافِيَّةٌ بَطنُ العَقيقِ مَصيفُها ∴ وَتَحتَلُّ في البادينَ وَجرَةَ فَالعُرفا[5]
فَإِن تَتبَعِ الكُفّـارَ أُمُّ مُؤَمَّـلِ ∴ فَقَد زَوَّدَت قَلبي عَلى نَأيِها شـغفا[6]

- ٢ -

وَسَوفَ يُنَبِّيها الخَبيرُ بِأَنَّنـا ∴ أَبَينا وَلَم نَطلُب سِوى رَبِّنا حلفا[7]
وَأَنّا مَعَ الهادي النَبيِّ مُحَمَّدٍ ∴ وَفَينا وَلَم يَستَوفِها مَعشَرٌ أَلفـا[8]
بِفِتيانِ صِدقٍ مِن سُلَيمٍ أَعِزَّةٍ ∴ أَطاعوا فَما يَعصونَ مِن أَمرِهِ حَرفـا[9]
خُفافٌ وَذَكوانٌ وَعَوفٌ تَخالَهُم ∴ مَصاعِبَ زافَت في طُروقَتِها كُلفا[10]

---

(١) سبقت ترجمته .
(٢) السيرة ٤/٨٠.
(٣) النية : من النوى ، وهو البعد ، وخلفا : أي إخلاف الوعد ، ونصب لكونه مفعولاً من أجله ، أو مصدراً مؤكداً للاستبدال.
(٤) القوى : العهد.
(٥) خفافية : نسبه إلى بنى خفاف ، العقيق : واد بالحجاز ، وجرة والعرف : موضعان.
(٦) النأي : البعد ، الشغف : التعلق بها.
(٧) ينبيها : أصله ينبئها ، الحلف : الجماعة والحزب.
(٨) الألف : عدد ، لم يستوفها : لم يبلغوا مبلغنا عددا.
(٩) فتيان : جمع فتى ، والفتى والفتية : الشاب والشابة ، والفعل فتو يفتو فتاءً ، سليم : قبيلة الشاعر، أعزة: كرام واحده عزيز، وحرف الشئ : ناحيته.
(١٠) خفاف وذكوان وعوف: بطون من قبيلة بنى سليم ، تخالهم : تظنهم. من خال الشئ يخال ، خيلا وخيلة وخيلة وخيلا وخيلانا ومخانة ومخيلة

كَأنَّ نَسيجَ الشُهبِ وَالبيضَ مُلبَسٌ ∴ أُسوداً تَلاقَت في مَراصِدِها غُضفا[1]

- ٣ -

بِنا عَزَّ دينُ اللَهِ غَيرَ تَنَحُّلٍ ∴ وَزِدنا عَلى الحَيِّ الَّذي مَعَهُ ضعفا[2]

بِمَكَّةَ إِذ جِئنا كَأَنَّ لِواءَنا ∴ عُقابٌ أَرادَت بَعدَ تَحليقِها خَطفا[3]

عَلى شُخَصِ الأَبصارِ تَحسِبُ بَيتَها ∴ إِذا هِيَ جالَت في مَراوِدِها عَزفا[4]

غَداةَ وَطِئنا المُشرِكينَ وَلَم نَجِد ∴ لِأَمرِ رَسولِ اللَهِ عَدلاً وَلا صَرفا[5]

بِمُعتَرَكٍ لا يَسمَعُ القَومُ وَسطَهُ ∴ لَنا زَجمَةٌ إِلّا التَذامُرَ وَالنَقفا[6]

بِبيضٍ تُطيرُ الهامَ عَن مُستَقَرِّها ∴ وَتَقطِفُ أَعناقَ الكُماةِ بِها قَطفا[7]

فَكَم قَد تَرَكنا مِن قَتيلٍ مُلَحَّبٍ ∴ وَأَرمَلَةٍ تَدعو عَلى بَعلِها لَهفا[8]

- ٤ -

رِضا اللَهِ نَنوي لا رِضا النّاسِ نَبتَغي ∴ وَلِلَّهِ ما يَبدو جَميعاً وَما يَخفى[9]

وخيلولة : ظنه ، ومصعب : فحول لم يمسسها صل ، والتي تودع من الركوب والعمل ، واحدها مصعب. وزافت : تحركت ، وأصله زاف يزوف زوفاً إذا استرخى في مشيته ، وطروقة الفحل : أنثاه ، كلف : سواد في وجه البعير أو الناقة.

(١) الشهب : التي يخالط بياضها حمرة ، والمراصد : الطرق ، واحدها مرصد ومرصاد ، غضفاً : مسترخية الأذان.

(٢) تنحل : زعم وادعاء.

(٣) اللواء : العلم ، والجمع ألوية وألويات ، والمراد باللواء هنا الجيش، وعقاب : طائر كاسر ، آكل للحوم وجمعه أعقب وعقبان وأعقبة وعقابين.

(٤) شخص : جمع شاخص ، وشاخص البصر ، من يفتح عينيه دون أن يطرف ، والمراود : جمع مرود وهو الوتد ، العزف : الصوت

(٥) عدل عن الشئ : تركه.

(٦) الزجمة : الصوت ، التذامر : الحض ، النقف في اللغة : كسر الحنظلة واستخراج حبوبها ، والمراد في السياق الشعرى : كسر رؤوس الأعداء

(٧) ببيض : سيوف بيض ، الهام : جمع هامة وهي العنق ، الكماة : جمع كمى : الفارس.

(٨) ملحب : مقطع اللحم ، بعلها : زوجها. ورواية البيت في السيرة (فكأن تركنا من قتيل ملحب .. ..) وأظنه تصحيف.

(٩) ننوى : نقصد.

ثانيا : السياق التاريخي للنص

أورد ابن هشام هذه الأبيات ضمن الأشعار التي قيلت في غزوة حنين في العام الثامن لهجرة النبي (ﷺ) ، ولكن بتأملها من خلال سياقها الفكرى والفنى ندرك أنها قيلت في فتح مكة ، ذلك النصر المؤزر للنبى ودعوته ، حين غزا المشركين في عقر دارهم . وذلك في شهر رمضان في العام الثامن للهجرة.

وكانت قبيلة (سليم) من أبرز القبائل مشاركة في الغزوات ، ضمن غيرها من القبائل الداخلة في الإسلام ، ولما كان الشاعر عباس بن مرادس فارس القبيلة وشاعرها ، أخذ يتغنى بهذه المناصرة للإسلام ، معليا شأن قبيلته بقيم جديدة تشربها الشاعر من فيوضات الدين الجديد.

ثالثاً : البعد الفكرى/ وملامح التحول في الذات القبلية

بقراءة القصيدة نلاحظ تشكيلها فكريا من أربعة أجزاء مترابطة فيما بينها ترابطاً عضوياً ، يلاحظه القارئ لأول وهلة ، عند قراءته للنص.

وتلكم المحاور الفكرية هي :

١- المقدمة (١ - ٤) .

٢- بنو سليم والذات القبيلية المسلمة (٥- ٩) .

٣- الذات الجمعية الموحدة في تصادمها مع الذات المشركة (١٠-١٦) .

٤- ختام القصيدة (١٧) .

-١-

بدأ الشاعر مقدمته بحديثه عن امرأة تدعى (أم مؤمل) ، معلنا انقطاع آخر الخيوط بينهما ، ذلك أنها أخلفت ما وعدت ، وقطعت الأواصل التي أقسمت على تقويتها.

ثم يبين أنها تنتسب إلى بنى خفاف ، وسكناها تتوزع بين (بطن العقيق) و (حرة) و (العرف). مما يدل على رفاهيتها ، ولئن تحزبت لعصبة الكفر فإن تعلق (عباس) بها سوف يزداد قوة ، وأن حبه لها سوف يزداد اشتعالاً ، لأنها بذلك تزداد بعداً ، وتوغل اغتراباً.

- ٢ -

وفي المحور الفكرى الثاني تسلل الشاعر ليتحدث عن قبيلته وجهودها من أجل الدين الجديد ، فيذكر أن التاريخ سيسجل هذه المناقب ، وأن (أم مؤمل) لسوف توقفن بأن الشاعر وقبيلته لم يبتغوا سوى الله حزبا ، وأنهم آثروا معية النبي الهادي (ﷺ) ، ومصاحبته في غزواته ضد الشرك والمشركين ، بل كان قومه أكثر القبائل عددا، وهم مع كثرة العدد ، يخلصون النوايا ، ويطيعون النبي القائد ولا يعصون له أمرا.

وكل فروع بنى سليم سواء في التضحية والفداء ؛ خفاف وذكران وعوف ، يسوقون العدو أمامهم سوق الأباعر للنياق ، ويخوضون المعارك كالأسود ، وهي بسالة في ظلال الإسلام ، وتحت قيادة خير الأنام ، عليه الصلاة والسلام.

- ٣ -

وفي المحور الثالث يركز الشاعر على جهاد القبيلة يوم فتح مكة يستفتحه بالإشارة إلى إعزازهم ومناصرتهم لدين الله ، ثم يذكر جهود لواء بنى سليم ، وكيف انقضوا على أعداء الله ، وكأنهم عقاب كاسر ، يترقب بفريسته حتى يحين خطفها.

يوم أن سحقوا المشركين ، آخذين إشارة الهجوم من النبي القائد ، فهم لا يعدلون بأمر رسول الله أمرا.

ويبين كيفية قتالهم ؛ فهم يخوضون المعركة في صمت ، ويحثون بعضهم بعضا على المواجهة واختراق صفوف الأعداء ،

فيحصدون رؤوسهم حصدا ، ويقطعون أعناقهم ورؤوسهم إربا ، فيتركونهم ما بين قتيل مقطع الأعضاء ، أو أرملة تنعى فقيدها ، وتصرخ لهفا على فقده.

- ٤ -

ويختم الشاعر قصيدته ببيت شعري واحد ، ملخصا به دوافع الجهاد، وغاية التضحية والفداء ، إذ يبتغون رضا الله وحده ، لا رضى الناس ، قاصدين وجه الخالق لا المخلوق ، والله على ذلك شهيد ورقيب ، فهو وحده مطلع على السرائر ، علام الغيوب.

رابعاً : البعد التعبيري عن الذات القبلية المسلمة والذات الأممية

هذه التجربة أو الرؤية الشعرية ذات باعث قوى، تحكم في مسارها الفني ، وسيطر على الأدوات الشعرية ، من بداية أول دفقة شاعرة في النص.

فقد أخلص شاعرنا لتجربته، مستغلاً كل الطاقات الفنية المتاحة وإن شئت فقل : كانت عاطفته تجاه بنى قومه قوية ، ذلك أنه متعصب لهم ، غيور عليهم، ولكنها عصبية نقاها الإسلام ، وطهرتها عقيدة التوحيد. فهو حين تعصب لهم إنما كان بسبب الإسلام ومن أجل مناصرته لنبي الإسلام.

ومعالم القوة والصدق في الباعث والعاطفة ، قد بدأت بالشرارة الأولى في مقدمة القصيدة كما يلى :

فقد آثر الشاعر توظيف الصيغة المضعفة (تقطع) للدلالة على قطع كل الأواصر والصلات ، بينه وبين المرأة التي رمز بها - فيما يبدو - لمن بقى على شركه من أطراف الجزيرة.

ولذا كان اسم المرأة مصوغاً من الفعل الرباعي المضعف (أمل) بصيغة اسم الفاعل (مؤمل) ليحدث لونا من الانسجام بين الواقع الإشراكي المؤلم - المرصود - وبين الآمال التي ينبغي أن تكون لدى غير المسلمين.

وهذا التناقض بين (الواقع / الأمل) هو ما يعكسه أسلوب الطباق في قوله (تقطع / باقي وصل).

والعناد والصلف يعكسهما الفعل المزيد بحروف الطلب(استبدلت) وفارق كبير بين (بدل واستبدال) طبقا للدلالة الصرفية ، فالثاني دال على آخذ (أم مؤمل) (الرمز) بكل أسباب القطيعة والشقاق.

ويعرب عن التناقض في الشخصية القناع ، الطباق والنفي في البيت الثاني، إذ حمل الشطر الأول القسم، والمحلوف عليه ، والشطر الثاني حوى نقيض كل منهما ، يمكن توضيحه بيانيا كما يلى:

وقد حلفت بالله ←— ولا برت الحلفا

لا تقطع القوى ←— فما صدقت فيه

وفي البيت ردا العجز على الصدر محسن بديعى.

وفي البيت الثالث يكشف الشاعر عن هوية المرأة ، فهي ابنة عمه من بنى(خفاف) وهو بطن من بطون قبيلة بنى سليم ، غير أن الأماكن التي ذكرها دلالة على طبيعة هذه المرأة ، التي تحمل كثيرا من السمات الأسطورية أو الخرافية.

حيث إن الأماكن التي ترتادها هي بطن العقيق ووجرة والعرفا ، وهي أماكن غير مألوفة لبنى البشر ، إنما تسكنها الوحوش الضارية، وتنعدم فيها أسباب الحياة الإنسانية.

أما بطن العقيق فهو مكان خرب، قال ابن منظور:"سئل إبراهيم الحربي عن الحديث: لا تختموا بالعقيق، فقال: هذا تصحيف، إنما هو لا تخيموا بالعقيق، أي لا تقيموا به، لأنه كان خرابا"(١).

وأما وجرة فهو موضع بين مكة والبصرة ، قال الأصمعي : هي أربعون ميلا ، ليس فيها منزل ، فهي مرة (مرتع ومسكن) للوحش ، وقد أكثرت الشعراء ذكرها(٢)".

(١) اللسان ع.ق.ق ٤/٣٠٤٥.
(٢) نفسه و ج ر / ٦ / ٤٧٧١.

ومنه قول امرئ القيس :

تصد وتبدى عن أسيل وتتقى ∴ بناظرة من وحش (وجرة) مطفل

فها قد تبين لنا أن تلكم المرأة الخفافية غامضة ، تسربلها الأسطورة وكأنها تحمل في طياتها معالم الجاهلية البائدة ، وهي في منظور شاعرنا خراب ودمار ووحشة ، وموت وفناء.

ومن هنا نقول : إن المكان قد وظف توظيفاً جيداً ، وعبر به بوصفه لبنة من اللبنات التي أسس بها الشاعر تجربته.

وأمله في أن تدخل (أم مؤمل) في حزب الله ، دفعه لاستعمال (إن) الشرطية ، شكا منه في انضمامها إلى حزب الشيطان في قوله :

"فإن تتبع الكفار أم مؤمل ... ..."

والشاعر في تشكيله للمحور الفكرى الثاني يستعمل أدوات دالة على التأكيد واليقين والإلحاح حيث الفعل المضعف (ينبيها) والكلمة الدالة على الخبرة والإلمام (الخبير) والتأكيد (بأن) والقصر (بأننا أبينا ولم نطلب سوى ربنا حلفا) (وأنا مع الهادي النبي محمد وفينا).

ووظف الطباق في تأكيد طاعتهم لرسول الله (ﷺ) في قوله : (أطاعوا فما يعصون من أمره حرفا).

كما استند في تعبيره إلى الصور الشعرية ، مثل التشبيه التمثيلى (تخالهم مصاعب زافت في طروقتها كلفا).

وقوله :

كأن النسيج الشهب والبيض ملبس ∴ أسوداً تلاقت في مراصدها غضفا

وفي المحور الثالث يستعمل أسلوب التقديم ، ليؤكد بهم خصيصه من خصائص بنى سليم ، وهي إعزازهم ومناصرتهم لدين الله : (بنا عز دينا الله) ويؤكده بالنفي (غير تنحل).

ويعبر بالتشبيه التمثيلى : كأن لواءنا عقاب أرادت بعد تحليقها خطفا وهذه الصورة الاستطرادية يكملها البيت الثاني ، حيث صور

فيه المشركين بصورة ساخرة ، مبينة ضعفهم وهوانهم ، وترقبهم للحظات الموت والهلاك حيث قوله :

على شخص الأبصار تحسب بينها .·. إذا هي حالت في مراودها عزفا

وفي قوله (غداة وطئنا المشركين) إيحاء بالقوة العسكرية الباطشة.

وفي قوله (بمعترك ... البيت) فيه تعبير بالقصر وفيه كناية عن الثبات ورباطة الجأش.

وفي قوله (ببيض) كناية عن كثرة استعمالهم للسيوف ، التي بدت بيضاء مصقولة لامعة ، لأن السيوف المستعملة بكثرة لا تصدأ.

وفي قوله (نطير الهام عن مستقرها) كناية عن الشجاعة والإقدام والقوة والسيطرة على الموقف.

وفي قوله : (ونقطف أعناق الكماة) استعارة مكنية (بها قطفا) مصدر مؤكد لمضمون الصورة الشعرية.

وفي قوله : (فكم قد تركنا من قتيل ملحب) دلالة على الهلاك والدمار الشامل الذي حل بالمشركين.

وفي قوله (رضا الله ننوي) تقديم يفيد التخصيص (ولله ما يبدو جميعاً وما يخفي) طباق أدائى ، يعبر به عن علم الله تعالى للظاهر والباطن.

ومن خلال ما سبق يمكن استنتاج الخصائص الفنية فيما يلى :

١- جاءت مقدمة القصيدة قوية في مطلعها ، مرتبطة مع غرض القصيدة في سياق فنى رائع. والمقدمة بهذا المعيار أصيلة تراعى الذوق الفنى العام ، الذي ارتضاه جمهور الشعراء والنقاد على السواء. وإن كان قد تخلى عن التصريع في أول البيت.

٢- رمز الشاعر بصفات (أم مؤمل) للجاهلية الجاهلة ، حيث ملامح الخراب والوحشة والدمار والهلاك والموت. وهي صورة تنفر

المتلقين من تلك الحياة، بعاداتها السيئة، وطبائعها المرزولة، وسجاياها المشينة.

٣- أحسن الشاعر الانتقال من المقدمة إلى غرضه الأصلي ، وهو الفخر يبنى قومه في رحاب العقيدة الإسلامية النيرة. بحيث لم يشعر القارئ بفجوة بين المقدمة والغرض ، وكانت عبارة الربط هي (وسوف ينبيها الخبير بأننا ...) وهو بهذا قد وفق فنيا في بنائه لقصيدته.

٤- كانت الألفاظ موحية معبرة منتقاة بعناية فائقة ، وجاءت الكلمات موافقة للسياق التاريخي والسياق الفنى ، وكان المعجم مرتبطا بالغرض والعاطفة.

٥- جاءت المحسنات البديعية فطرية معبرة ، ولم تكن هدفا في ذاتها ، لأن الشاعر صاحب قضية.

٦- استعان الشاعر بالصور الشعرية ونجح في التعبير بها ، وكانت قريبة الينابيع ، تفسيرية موضحة من حيث أدائها ووظيفتها ، وقد سيطر التشبيه التمثيلى على مجموع صوره ، وهو ما يعرب عن رغبة في إتمام لوحات الفروسية والبطولة.

٧- كانت عاطفة الشاعر قوية بحيث انعكست مظاهر قوتها، ودلائل صدقها على أدواته الفنية، إذ جاءت متلاحمة فيما بينها، متضافرة في الإعلان عن العاطفة ولونها.

٨- وضح أثر البيئة قويا في هذا النص فمن حيث البيئة المكانية ، يلقانا (بطن العقيق - وجرة - العرف).

كما جاءت صورة الشعرية من ينابيع بيئته القتالية والطبيعة الحية (مصاعب زافت في طروقتها تلفا - أسوداً تلاقت في مراصدها غضفا - كأن لواءنا عقاب - ببيض نطير الهام عن مستقرها).

٩- كشف النص عن التحول الذي طرأ على الشخصية العربية ، حيث أشربت التعاليم الإسلامية ، وأثرت في إعادة تكوينها وبناء شخصيتها.

فمن يصدق أن قائل هذه الأبيات هو عباس بن مرادس الذي كان في الجاهلية يتعصب لبنى قومه عصبية جاهلية؟! نعم .. هو الآن يفخر بقومه بنى سليم ، ولكن القيم التي يفخر بها قيم جديدة ، زرعها الإسلام في النفوس زرعا ، فآتت ثمارها.

إنه هنا يقف موقفا معارضا مناوئا للمرأة الحبابية الرمز أم مؤمل ، إنه مع حزب الرحمن ، وهي مع حزب الشيطان.

وسوف ينبيها الخبير بأننا ∴ أبينا ولم نطلب سوى ربنا حلفا

إنه وقبيلته بنو سليم يأبون إلا حزب الله ، ويرفضون كل المغريات التي يمكن أن تثنيهم عن الطريق المستقيم.

وهو وقبيلته يجاهدون تحت قيادة النبي الخاتم الهادي في مثل أقواله :

وأنا مع الهادي النبي محمد ∴ وفينا ولم يستوفها معشر ألفا
بفتيان صدق من سليم أغزة ∴ أطاعوا فما يعصون من أمره حرفا
غداة وطئنا المشركين ولم نجد ∴ لأمر رسول الله عدلاً ولا صرفا
رضا الله ننوي لا رضا الناس نبتغى ∴ ولله ما يبدو جميعا وما يخفي

وعباس بن مرادس هذا هو الذي خاض المعارك بالسيف والكلمة - في الجاهلية - ضد ابن عمه (خفاف بن ندبة السلمى) من أجل الزعامة على قبيلة سليم والنقائض الشعرية دالة دلالة قوية وصريحة على ضخامة المعترك ، بين هذين المتصارعين من أجل زعامة القبيلة ، في الأزمنة الجاهلية الغابرة[1].

(١) تنظر هذه النقائض في ديوان عباس بن مرادس صـ ٣٥ ، ٥٢ ، ٥٧ ، ٧٥.

ولكن بمجيء الإسلام ، وانضوائهما تحت لوائه ، تحولت سماتهما نحو النور والخير والفضيلة ، وخاضا غمار المعارك ضد المشركين،باللسان والسنان،تحت قيادة واحدة ،هو النبي القائدة (ﷺ)

لهذا النص بعد تاريخي، حيث حوى جملة من الحقائق التاريخية الشاعرة، تمكن المؤرخين لعصر صدر الإسلام، من جوانبه الجهادية، أن يحصلوا على المعلومات والإيضاحات من خلال الرؤى الشعرية الراصدة.

فقد أشار الشاعر إلى بطون بنى سليم المشاركة فتح مكة ، وهم (خفاف وذكوان وعوف).

كما أشار إلى عدد المقاتلين من قبيلته إذ بلغوا ألفاً في الوقت الذي لم تبلغ فيه سائر القبائل مثل هذا العدد ، ما عدا قبيلة (مزينة) حيث يقول ابن هشام "مضى رسول الله (ﷺ) حتى نزل من الظهران. في عشرة آلاف من المسلمين ، فسبعت سليم وبعضهم يقول : ألفت سليم ، وألفت مزينة[1] ".

فيجئ الشاعر (عباس بن مرداس) ويرجح الرأي الثاني بقوله :

وأنا مع الهادي النبي محمد .·. وفينا ولم يستوفها معشر ألفا

وهكذا يتبين لنا أن من الشعر العربي في عصر النبوة ما ظهر فيه جليا صدي التشكيل الجديد للذات المسلمة في بعديها الفردي والأممي.

أما البعد الفردي فتمثل في قصيدة حسان بن ثابت التي التحم فيها عقديا مع حزب المشركين، صراعا من أجل الدفاع عن الدعوة والداعية .

وأما البعد الجمعي الأممي فقد تمثل في قصيدة عباس بن مرداس الذي تغنى بقبيلته التي ناصرت الإسلام والمسلمين.

فالانتماء إلى القبيلة لم يعد انتماء مطلقا وتعصبا أعمى، ولكن انتماء وجهه الإسلام وجهة جديدة، بناء على تشكيل الذات تشكيلا فريدا.

---

(١) السيرة ٤/٣٠.

المصادر والمراجع

١ – أثر الإسلام في الشعر في عصر الرسول والخلفاء الراشدين، د/ السيد عبدالقادر عويضة ، دار المعارف بمصر ١٩٨٧م.

٢ – الأدب الإسلامي (في عصره الأول) د. صلاح الدين عبدالتواب، دار الطباعة المحمدية ، القاهرة ، ط أولى ، ١٤٠٢هـ /١٩٨١م.

٣ – الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، لا بن عبد البر ، بتحقيق محمد على البجاوي ، دار نهضة مصر ، القاهرة (د.ت).

٤ – أسد الغابة في معرفة الصحابة لعز الدين بن الأثير ، مطبعة الشعب ، القاهرة ، ١٩٧٠م.

٥ – الإسلام دين الفطرة والحرية ، الشيخ عبد العزيز جاويش ، دار المعارف بمصر ١٩٦٨ م

٦ – الإصابة في تمييز الصحابة ، لا بن حجر العسقلاني ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان.

٧ – الأغانى لأبى الفرج الأصفهاني ، شرحها عبد مهنا دار الكتب العلمية، لبنان ، وتحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم وعبدالكريم الغرباوي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣م.وطبع الثقافة

٨ – أمالى المرتضى ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، ط أولى ١٣٢٥هـ.

٩ – البحث عن الذات (دراسة في الشخصية ووعي الذات) إيغور كون، ترجمة الدكتور غسان نصر، دار معد للنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، ١٩٩٣ م

١٠ – إنباه الرواة على أنباء النحاة، للقفطي، جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف، بتحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم. الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٤٠١ هـ – ١٩٨١ م .

١١ – البداية والنهاية لابن كثير، دار الغد العربي، ط ثانية ١٩٩٠م

١٢ – البيان والتبيين ، للجاحظ ، دار الكتب العلمية ، لبنان.

١٣ – تاريخ ابن خلدون (ديوان المبتدأ والخبر) لعبد الرحمن بن خلدون (ت ٨٠٨ هـ) ضبط خليل شحاتة، دار الفكر، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤١٧ هـ – ١٩٩٦ م .

١٤ – تاريخ ابن الوردي ، زين الدين عمر بن المظفر، الشهير بابن الوردي (ت ٧٤٩ هـ) المطبعة الحيدرية، النجف . العراق. ط: ثانية، ١٣٨٩ هـ – ١٩٦٩ م .

١٥ – تاريخ الأدب العربي (الجزء الأول) د. عمر فروخ ، دار العلم للملايين ، لبنان.

١٦ – الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي ، للمعافي بن زكريا ، بتحقيق د / محمد مرسى الخولي ، ١٩٨١ م .

١٧ – جمهرة خطب العرب ، محمد زكى صفوت ، القاهرة.

١٨ – حماسة أبي تمام برواية الجواليقي المؤلف: أبو تمام ، دار الكتب العلمية لبنان ، ١٩٩٨ م .

١٩ – الحماسة البصرية، لصدر الدين علي بن الحسن البصري، تحقيق مختار الدين أحمد، نشر عالم الكتب، بيروت ١٤٠٣.

٢٠ – خزانة الأدب ، للشيخ عبد القادر البغدادي (ت١٠٩٣هـ) دار صادر بيروت.

٢١ – دلائل الإعجاز ، للإمام عبد القاهر الجرجاني ، تحقيق وشرح، السيد محمد رشيد رضا، مكتبة محمد على صبح ، القاهرة ، ط:سادسة ، ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م.

٢٢ – ديوان حسان بن ثابت، تحقيق د. وليد عرفات ، دار صادر بيروت، ١٩٧٤ وتحقيق د/ سيد حنفي حسنين ،دار المعارف ١٩٨٣ م ،ونسخة مطبعة الإمام، مصر، (د.ت)

٢٣ – ديوان السموأل (بذيل ديوان عروة بن الورد)٠

٢٤ – ديوان دريد بن الصمة، بيروت ، لبنان ٠

٢٥ – ديوان الشنفري جمع وتحقيق د/إميل بديع يعقوب ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، ط أولى ١٤١٢ هـ –١٩٩٠م

٢٦ – ديوان الصاحب بن عباد ،تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين، مكتبة النهضة ، بغداد ط أولى ١٣٨٤هـ١٩٦٥م

٢٧ – ديوان عباس بن مرداس ، جمع وتحقيق د. يحيى الجبوري ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط أولى ، ١٤١٢هـ/١٩٩١م.

٢٨ – ديوان عبد الله بن رواحة (ودراسة في سيرته وشعره) د/وليد قصاب ، دار العلوم للطباعة والنشر ، الرياض ، السعودية ١٤٠٢هـ=١٩٨٢م

٢٩ – ديوان عروة بن الورد ، دار بيروت للطباعة والنشر ١٤٠٠ هـ =١٩٨٠م

٣٠ – ديوان عمرو بن كلثوم ، تحقيق وجمع د/إميل بديع يعقوب ، دار الكتاب ،لبنان ١٩٩١ م

٣١ – الذات ونظرية الفعل، للدكتور عزت قرني، دار قباء لطلباعة والنشر والتوزيع، الفجالة، القاهرة، ٢٠٠١ م .

٣٢ – روح الإسلام، السيد أمير على ، أمين محمود الشريف، مراجعة محمد بدران، مكتبة الآداب ومطبقها بالجماميز، ١٩٦١م.

٣٣ – رياض الصالحين للنووي ، مؤسسة الكتب الثقافية ، لبنان ، ط ثالثة ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

٣٤ – السيرة النبوية لابن هشام ، دار المنار القاهرة ، ط أولى ، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م، وتحقيق طه عبد الرؤوف سعد ، م الفجالة الجديدة ،ط ثانية ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

٣٥ – شرح ديوان عنترة، دار صادر، بيروت لبنان .

٣٦ – الشخصانية الإسلامية ، د/ عزيز الحبابي ، دار المعارف بمصر

٣٧ – شرح الحماسة للتبريزي ، طبعة القاهرة ١٩٥٥.

٣٨ – شرح حماسة أبى تمام ، للأعلم الشنتمرى ، ت د/ على المفضل حمو دان ، دار الفكر المعاصر ، بيروت –لبنان ، ط أولى ١٤١٣هـ-١٩٩٢م

٣٩ – الشعر في رحاب الدعوة الإسلامية ، د. محمد أحمد سلامة مطبعة حسان ن القاهرة ، ط أولى ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

٤٠ – الشعر والشعراء لابن قتيبة ، تحقيق د. مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، ١٩٨١م ، وتحقيق العلامة / أحمد محمد شاكر دار التراث العربي للطباعة ، ط ثالثة ، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.

٤١ – صحيح مسلم، شرح النووي: طبعة القاهرة ١٣٤٩ هـ.

٤٢ – طبقات فحول الشعراء ، لمحمد بن سلام الجمحي ، شرح وقراءة محمود شاكر ، دار المدني ، بجدة ، السعودية.

٤٣ – العصر الإسلامي د. شوقي ضيف ، دار المعارف ط تاسعة ١٩٨١م.

٤٤ – عقيدة المؤمن، أبو بكر الجزائري، مكتبة الدعوة الإسلامية، شباب الأزهر ١٩٨١م

٤٥ – علم النفس الاجتماعي حامد زهران، عالم الكتب، ط٥، مصر (د-ت) .

٤٦ – على مائدة القرآن (دين ودولة) ، د/ أحمد محمد جمال ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، ط٣٧ .

٤٧ – في الفكر الإسلامي من الوجهة الأدبية ، / محمد أحمد العزب، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ١٩٨٣م.

٤٨ – قصة الأدب في العالم ، أحمد أمين ، وزكى نجيب محمود ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، ٢٠٠٢ م .

٤٩ – قطوف من ثمار الأدب الإسلامي ، د. على الخطيب . الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، ط أوى ، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

٥٠ – لسان العرب لابن منظور ، تحقيق عبد الله على الكبير وزميليه ، دار المعارف بمصر.

٥١ – معالم الطريق ، سيد قطب ، دار الشروق – القاهرة (بدون) .

٥٢ – معجم الشعراء الجاهليين والمخضرمين د/ عفيفي عبدالرحمن. دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض – السعودية ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣ م.

٥٣ – معجم الشعراء للمرزباني تصحيح وتعليق د/ف. كرنكر دار الجيل ، ط أولى ، ١٤١١هـ/١٩٩١م.

٥٤ – المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، د. جواد علي، لبنان .

٥٥ – من أريج الأدب العربي في عصرى صدر الإسلام والأموي ، د. الصادق حبيب ، مطبعة ههيا ، الشرقية ، مصر.

٥٦ – منهج الإصلاح الإسلامي في المجتمع د/ عبد الحليم محمود، دار الشعب – القاهرة .

٥٧ – الموشح للمرزباني ، المطبعة السلفية ، ١٣٤٣هـ/١٩٢٤م.

٥٨ – النبى (ﷺ) وصحبه في الشعر العربى (عصر الدول والإمارات) ، د. الشحات غمرى أبو قطرية ، مطبعة الأندلس ، جرجا (سوهاج) ، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.

٥٩ – نضرة الإغريض في نصرة القريض ، للمظفر العلوى ، تحقيق دكتورة / نهى عارف الحسن ، دمشق ، ١٩٧٦ م .

٦٠ – النقائض في عصر البعثة المحمدية د/ حسن أحمد الكبير ، مطبعة الشباب الحر ومكتبتها القاهرة ط أولى ١٤٠٥هـ – ١٩٨٤م .

٦١ – وفيات الأعيان لابن خلكان (ت٦١٨هـ) تحقيق د. إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت (د.ت).